مبارك ربيع

البلوري المكسور

قصص

مبارك ربيع

قصص

الفهرس

الطبعة الأولى 1996

الرأس والوسادة

استمرأ أن يبقى في الفراش، بل على الفراش بتعبير أدق، يداه مخلفتان تحت رأسه على الوسادة، وجسمه ببذلة النوم خارج الغطاء، فوق الغطاء؛ استمرأ لسعة البرد القارس على القدمين العاريتين. لهيب المدفأة خبا منذ منتصف الليل كعادته، والدفء استهلكته الشقة والأثاث وتكدس الأنفاس. الشمعة وحدها تبدو منتصبة نظيفة تجمد الدمع عند منتصفها.

إطار المدفأة والآجر المرصوص في ساحة واجهتها يشكلان هرما مسطحاً.. طاف بنظرة كسلى على كل شيء حوله. صورته و«أنّا» تتوسط المشهد.. رائعة في ابتسامتها، يجللها البياض. لم يكن ثوب عرس مكتمل، لكن التاج والإكليل الحريريين المطرزين كانا حقيقيين، كانت فرْحةً حقيقية لا بحبه فحسب، «فأنّا» كانت حقاً حبّاً، لكن بهجته العميقة كانت لما هو أكثر.. فقد آن للفارس أن يترجل أخيراً، في مرحلة لا يهمه أن تكون طويلة.. ربما يجب أن تكون طويلة.. ربما يجب أن تكون طويلة في سبيل المبدإ.. وعلى الطريق، إنه التاريخ وليس النزوة أو الطفرة. ويكفي أن يكون الفارس جاهزاً في اللحظة المناسبة، شاهراً.. شاحذاً.. سيفه معرّضاً

صدره ورقبته للخطر من أجل اللحظة المنتظرة... لحظة صناعة التاريخ ولحظة الولادة..

صورة ثانية لأنّا، وحدها في إطار صغير عليه رسومات شرقية، كان هديته إليها في إحدى المناسبات.. قال لها إن صورته الأولى في الوطن، عندما كان وهو في الإعدادي، كانت ضمن إطار مشابه.. ضحكتها ما تزال.. ولم تعد.. كانت تملأ الإطار وتفيض عليه إشراقاً .. ضحكة كونية ممتلئة عافية وشفافية تنضح بالعفوية وصفاء العقل والوجدان.. تعوّد أن يقرأها من كل الأبعاد والاتجاهات، فلا تكشف إلا مزيداً من الإغراء . . ضحكة ظلت تملأ عليه الخيال والواقع. قال مرة صادقاً إنه لن يتخيل ضحكة وإشراقا مثلها، قبلتْ "أنّا" ذلك وأضافت أن المصور يحتاج إلى جائزة. لم يترك لها الفرصة لمثل هذه الفكرة. الجائزة تستحقها صاحبة الصورة. أنت يا «أنّا» أنت - بعد الخالق الرزاق - التي صنعت، هذا الإشراق الكوني وأبدعته؛ ويستحقها هذا البلد، هذا الوطن الذي أبدعك... أتعتقدين أن مثل هذا الإشراق وهذه الضحكة توجد في كل البلاد ! آه. يا من أبدعتم هذا الوطن الغالي.. الكوني! لم تكن لتهدئ من حماسته، فهي لا يمكن أن تقلّ عنه.... وكان مدفوعاً باقتناعه بمبادئه التي نذر لها كل ذرة في كيانه؛ واليوم الكوني العادل لابد آت.. في سبيل ذلك كان يرفع بصره نحو البنايات الشامخة ويشير إلى الجسور، والطائرات، ومانشتات الصحف، ونظافة الشوارع؛ كالطفل الغرير المبتهج مؤكداً لأنّا.. كونها لا تعرف أو لا تدرك ما في بلدها الكوني من معجزات، ويقول إن عليهما.. هو وأنّا أن يتذوقا هذه الحياة حتى يعرفا بحق ماذا يمكن أن يتحقق يوماً في ذلك المشرق الذي ينتمي إليه، وفي العالم كله.. كان يقمع تذمرها الحقيقي من الصفوف الطويلة أحياناً على بعض مواد التغذية . . كان يستنكر منها ذلك ولا يفهمه.. وكان يتطوع بكل ابتهاج وفخر ليقضي ما يجب من وقت في الصف.. ثم يعود ظافراً يقفز طرباً.. إنها تجربة تاريخية يا "أنّا" وعلينا أن نساعد التاريخ من داخلنا في أحاسيسنا . ويقمع غشاوة التذمر الخفيفة

على محياها، يقبلهاويتساءل بينه وبين نفسه، لم يكتب عليه وأمه الشقاء، بينما آخرون ينعمون؟ دائماً كان يغار حتى في وطنه من هذا الشعور بالحزن كلما أحس أمام مشهد أو شخص أنه يمتاز أو يتمتع بشئ. لماذا يسبقنا الغير دائماً فيما هو مفيد؟

تشتد وخزات البرد على قدميه؛ يحس بالتجمد في رؤوس الأصابع. لكنه يكسل عن كل حركة للدخول في الغطاء.. يرنو إلى ما تبقى من شمعة الليل المحترقة ويجرّ بصره إلى الإطار الصغير.. ضحكة أنّا وعافيتها.. عندما زارتها والدتها بعد الاقتران بشهور قليلة، غابت تجاعيدها القروية وهي تحتضن ابنتها وتنظر إلى كيانها المتسق المكتنز مؤكدة، أنت بخير بخير.. لم يفتر ثغرها عن ابتسامة ظاهرة أو ضحكة، لكن لهجتها واختفاء التجاعيد المؤقت دلّ على عظيم بهجتها بصحة "أنّا" وعافيتها . وعند ذلك جلسوا حول "بطاطا الفرن" الصحن التقليدي الذي تجيدُه المرأة القروية. ودبت فيه حرارة شراب القربة الريفي الذي جاءت به والدة "أنّا" مع هدايا ريفية أخرى. قالت لابنتها بصراحة : إنها تغبطها، فالمرأة حسب خبرتها وعندهم في الريف، لا تكتنز عافية إلا في الترهل أو الترمل.. كان حياؤه الشرقي قد فارقه، وشجعته حرارة القِرْبَة الريفية فامتد نحو "أنّا" يقبلها ويقول: إنه الحب يارفيقة؛ الحب!

تذكر أمه في وطن الأحزان؛ لا يستطيع المقارنة فعلاً ..أمه كيان حنان يتحرك، لا يبدو عليها أنها ستعرف الاكتناز أبداً.. حنانٍ يتحرك بحزن عميق، لكنها عندما تضحك، تضحك... تبتسم وتبدو واضحةً على ملامحها عودتُها إلى الحزن.. لا مقارنة . أمه هناك خارج كل تجربة.. أما هذه المرأة فهي في جوف التجربة ، حتى وإن لم تعرف ذلك أو تقدره حق قدره.. أمه هناك يبدو عليها أنها غير راضية عن قدرها، لكنها تقبله وقد تبتهج به.. هنا الأمر غير واضح . لكن لا يهم. التاريخ يصنعه الناس ويصنعهم.

عندما خطا خطوته الأولى هنا، أحس بأنه أخيراً قد وجد الهواء الذي يناسب رئتيه، أحس ببرودته تحرق خياشمه وحلقومه؛ توقظ مواته.. تلهب

يأسه ليزهو بالأمل الناصع نصاعة كثبان الثلج المترامية؛ الدافئ دفء البخار المترامي من أفواه المتحدثين في جوّ لاسع.. مثلج. كان يعشق المشهد.. وما يلبث أن يقفز كالطفل رامياً قلنوسته الثخينة في الفضاء، فاتحاً طوق صدره للهواء.. وتجري "أنّا" خلفه.. تدثره وتلف حوله الشال بهلع معقول، ويؤدي ثمن الحماقة، زِكاما كونياً يُحْمَل معه إلى المستشفى العمومي حملاً، وعلى الرغم منه..

مرة أخرى . . وأخرى. . وأخرى يجد فرصة للتمتع والحديث عن التجربة التاريخية التي تهتم بصحة فرد أجنبي غير منتج ومشرد..

وعندما تُهوّن "أنّا" من الأمر، يحكي لها صوراً لا منطقية عن المرض والعلاج في وطنه، فعلى كبرها المبكر، أمه لا تكاد تعرف الطبيب.. ويذكر صوراً ملتبسة في الذاكرة منذ صغره عَن هذه الأنثى التي تتحرك تكاد تحبو... يسراها ممسكة ببطنها الذي انثنى عليه كل كيانها، ويمناها تدعم بها الأرض حتى تتحرك... تتحرك نحو المجمر . . . تحمي آجرة أو حجراً صمّاً، حتى إذا بلغ الغاية لفّته في خرقة، ودفعت به تحت بطنها أو تكتها. . . تصدر عنها آهات دفينة وهي تتحرك ببطء عائدة إلى حيث تتمدد لحظة متأوهة في انكتام. . حتى تهمد في شكل غيبوبة.. وإلى الآن لم يستطع أن يعرف نوع علة الألم أو مرضها الذي تشكو منه. . كان صغيراً يقف يتأمل حركاتها وهي تتلوى.. مشيرة إليه ألا يخاف .. ألا يخاف عليها..أن يبتعد. . فلا يملك إلا أن يختفي ويظل يراقبها في هلع. . وحين تصحو من غفوة الألم أو غيبوبته ـ وكانت، دائماً تصحو من ذاتها ـ تتحرك لما يجب أن تقوم به متكورة على بطنها، ماسحة على رأسه دون كلام.. وكان في شبابه يذكر أمامها الطبيب، فلا تزيد على أن تقول: الطبيب هو الله يا ولدي..

آه. . .أين ذلك من أم "أنّا" من أنّا أم أيوب ذاتها؟! أيوب ،أيها الجرح العميق الذي لا يندمل. . ماذا ينتظر براءتك وانفتاح ذراعيك الغضين وأنت تنطلق كالريح ـ كما تقول "أنّا"- للارتماء في أحضان ماما أو بابا؟ تعجبُ "أنّا" وهو يشرح مغزى اسم أيوب الذي يريد أن يطلقه على الجنين إذا كان وليداً ذكراً...

قال لها إن أيوب تعني الصبر. .وعلى الوليد أن يصبر كما صبر أبوه، حتى يتحقق الحلم البكر في نصاعة الثلج ونقائه.. قال لها إنه هو بالذات أيوب، أما ابنهما فسيكون ابن أيوب في واقع الأمر!

وتضع "أنّا" يدها على صدغيها ، تحمي سمعها من هذه "الخربقة".. فيقول: يا حبيبتي" أيوب لفظ عالمي يكتب ويُنطق صَحيحاً في جميع اللغات! حينئذ تقبل.

أيوب، يا ضحكة الغر والبراءة.. ماذا ينتظر شبق طفولتك البرئ؟!

الصبر نفسه يتصدع من هول ما يقع.

خطواته الأولى، على أرض الثلج، أحيت فيه شعوراً بإنسانيته، يحيا داخله من جديد، وأفكاره تُستَنبتُ كأرض يغسلها وابل إمطار بعد أن شققها الجدب والجفاف..

كانت "أنّا" مرافقته وأستاذته في اللغة، وكانت حميته وحماسته تحرقان به المراحل، لا يلتفت إلى شيء ولا يلوي على شيء.. حتى تسوية وضعيته ومراجعة المصالح الإدارية على ضرورتها، كان يؤجلها في سبيل أن يتعلم ويعرف ويحادث ويلاقي ويسأل .. إنه يريد أن يعرف سر تقدم البلد.. وصورة تخلّف الوطن لا تفارقه..

هكذا كان شعلة حماسة وقادة.. غافلة عن كل شيء غير الهدف.. وأنّا بجانبه تعلم وتجيب، وكان حريصاً على أن يروي لها بكل تفصيل، بكل تدقيق، كل ما يمر به في يومه ومن يحادثهم من رفاقه، وما يجول في ذهنه وأذهانهم، وعندما كانت تظهر التبرم بما تسمع، يتطوع بأن يؤكد لها أنها يجب أن تكون في خدمة وطنها، وأنه لا يمكن إلا أن يكون مثلها في خدمته ما دام يستضيفه..

كان يعتقد بأن سلامة هذا البلد تمثل سلامة الكون والمستقبل. ومن ثمَّ لا عليه أن يثقل عليها في سرد تفاصيل مجريات يومه. . من يدري فقد تُسأل في شيء عن رفيقها.. وعليها أن تكون على علم !"أنّا" كانت جزءاً مما يجب أن يَعرف، ولم ينتبه إلى أنها شيءآخر. إلا ذات يوم وهُمَا يخطوان في

حديقة المحبين، بجوار الأحرف البارزة لاسم الشاعر الكبير، وقرب تمثاله البرونزي الواطئ، كان يقرأ عليها مسودة مقالته حول " أرضية الصراع في الشرق الأوسط" لتصحح لغته، حين انثنى بها كعب الحذاء أو تعثرت القدم فانحرفت فجأة، تلقاها ولم يكن مستعداً فانكفآ معاً. برهة احتضان عفوية كانت كافية ليعرف تمام ما بقي مما حوله . . وقالت له فيما بعد الزواج، إنها لم تكن تملك طريقة أخرى لإيقاظه!

"أنَّا" القلب وأمّ أيوب. . . كيف يتصدع الكون في الرأس، وتحت الأقدام، وتبقى الذكرى وحدها ماثلة والزمنَ القريبَ، زمنَ الحلم الأبيض الناصع؟! ماذا يقول لأمه. . تلك التي تحمل أوجاعَها هناك منضوية على آجرة محمية أو حجر صلد؟ لماذا ترك أحلامها البسيطة أو أشفق على سذاجتها، ووعدها بينه وبين نفسه بأن يدخل عليها الفرحة، عندما يجعل لها بجوار كل بيت طبيباً، وفي كل حي مستشفى متخصصاً. . وفي كل جسم عافية، وضحكة، وإشراقاً، ماذا يقول لها عن مستقبل حفيدها أيوب الذي لم تعرف منه إلا الإسم ولن تعرف؟

كيف يتصدع الكون في الرأس وتحت الأقدام، وأنت أنتِ، أنّا أم أيوب، التي كنتِ تتبرمين بتفاصيل يومياته، وهو يتطوع بسردها في إخلاص تلميذ.. تتابعين حلقومه اليوم، لاستخراج الكلمات.. تعدين ذرات البخار من تنفسه ولهاثه..

لماذا تزداد نبضات القلب أو تنتقص أو تثبت...؟ تدققين قراءة الحروف مبنى ومعنى عمن وما وراءها، تتنكرين لكل لقاء مرتقب أو متخيل مع رفيق؟ أنت أنت أم أيوب، كيف يتصدع كل شيء حولنا ولا تزيدين على أن ترفعي قدمك بنصف خطوة متئدة إلى الضفة الأخرى بكامل اليسر والسهولة.. ويصبح صمت أبي أيوب إدانة، وجهره تهمة، وسؤاله مؤامرة، وخطوهُ على الرصيف والجسروالفضاء.. وكل ما كان يزهو به التاريخ.. خطأ محروساً ؟! كيف تصبح بلاغته المثيرة للإعجاب هذراً سخيفاً؟ وأين أين غاص القراء والرفاق وأيوب يا أم أيوب؟

انتفض قاعداً في الفراش، أطرافه تثلجت، ومد يده يحك أطراف قدميه

العاريتين، ثم قام دون أن يعبأ بوضع رجليه في الخف الليفي.. سحب ستار النافذة الشفاف ليسمح لأقصى نور بالتدفق إلى الغرفة ، قصد المرآة، دقق النظر في شَعَرِ ذقنه النابت خالطه البياض، لم يكن راغباً في الحلاقة. لكنه بفعل العادة مد يده نحو الحنفية ثم توقف.. لاماء .. لانور .. لاحب.. لاكون لا أيوب .. آه يا أيوب.

رنا إلى ساعته. وأسرع يرتدي لباسه.. يمكنه أن يمر على المدرسة ليرى أيوب.. يودعه بقبلة أخيرة. إنها مغامرة لا تخيفه.. مهما يكن فهو أبو أيوب، ومن حقه أن يراه للمرة الأخيرة على الأقل...؟

أسرع ينزل الدرجات، ملفوفاً بجاكتة ثقيلة لم يعبأ بتزريرها.. وعندما لفحه هواء البرد ، توقف: لماذا يكلف أيوب الصغير لحظة حرجة مريرة تحفر في ضميره الهش ذكرى أليمة..

بلع ريقه مرات. بلع حسرة أيوب معَ سائر الحسرات ورنت في سمعه فقط مكالمة الأسبوع.. بصوت كصوت "أنّا أو صوت أم أيوب. وبقلب آخر... آخر... يقول: الجواز في المطار...

حسّون

كثيرة هي الأشياء التي نمر بها، يلتقي بها خط سيرنا فلا نعيرها اهتماماً، كأنها غير موجودة، أو كأن وجودها ليس إلا أحد مكونات الإطار الذي يبرز فيه ما يصادف اهتمامنا، أو ما نبحث عن مشاهدته.. أشياء كثيرة نطأها أحياناً أو نوشك، نسقطها أو نكاد، نستند عليها أو نتمسك بها في سعينا، دون أن نعبأ بالانتباه إلى أنها موجودة... ربما ننتبه إليها عندما تفتقدها عين المألوف فتتساءل عن شيء كان هنا أو هناك..ترى ماهو؟ أين هو؟ وأناس كالأشياء تماماً..كهذه الأشياء بالذات لانعيرها اهتماماً إلا إذا فرضه علينا غياب المألوف..وإلا فمن يفكر بأن هذه الكتلة الضئيلة لهيكل حسون شيء يثير البال أو يشد الانتباه سواء انتحت مكاناً قصياً عن زحمة السائرين ترتاح وتراقب، أو اتخذت لنفسها موضعاً يستفزّ مواقع الأقدام؟ لا أحد ..لاأحد ..وحسون نفسه متأكد من ذلك، بل هو الأكثر تأكداً من هذه الحقيقة، وهو الأكثر قبولاً لها لمجرد أنها الواقع. عيون سادرة، شاردة تنظر إليه ولاتراه، أيدٍ تمتد نحوه لاتلمسه أو تحس به، أقدام تروغ عنه أو تنحرف حتى لاتقع به دون أن تتوقف أو يعتريها تعثر، ... وحتى كلمة

السماح والاعتذار التي تصدر موجهة نحوه لهذه المناسبة أو تلك، تأتي كأنها غير قاصدة ولامقصودة، إنها تأتي كما يعطس المرء أو يتجشأ أو.. يذكر العاطي الكريم..عند أية حركة من حركاته ... العاطي الكريم... على العاطي الكريم... عليك ياكريم...ياكريم الكرماء..هو نفسه حسون، هو أيضاً يسري عليه ذلك، رغم اختلاف الحال والمقال..

هو نفسه حسون يردد ويظل يردد عباراته على السابلة، ويتلقى منهم، دون أن يراهم وهو ينظر إليهم. ودون أن يعي مايقول ولسانه يتحرك. صحيح..صحيح..صحيح.. مع أن الوضع مختلف. مختلف تماماً. العاطي الكريم عندما حرم حسون من الحركة، وجعله ملتصقاً بالأرض مقعداً، لايتحرك، أي لايتنقل إلا بإرادة غيره، حكم بأن الوضع مختلف تماماً تماماً؛ وحسون مهما يبلغ به عدم الاهتمام بالناس، فذلك لغفوة، أو نزوة أو شردة، أو ضرورة قاهرة لكنها عابرة، وسرعان مايعود الناس يملؤون وجود حسون، ينتقل أو ينقل بإرادتهم، يقضي ضروراته الجسمية بتدبيرهم، يقتنص بمنتحاه المألوف وعباراته المكرورة، ما يجودون به ممّا جاد به العاطي الكريم..كريم الكرماء.

من ينادي الهيكل النحيف الخفيف المرمي في موقع الأقدام باسمه حسون؟ من يعرف أنه له اسماً أو يتصور ذلك؟ الأقربون إليه أنفسهم، حتى لايقول: "المنتفعون بسعيه ورزقه"، قَلّما يستعملون الاسم في التعامل معه، وعلى كل حال فهو لايذكر أنه سمع منهم مناداة باسمه، وإذا كان قد حصل على ندرته، فلاشك أن طريقة المناداة، لم تختلف في شيء عن طريقة العطس أو التجشؤ أو..بحيث لم تترك في خاطره أي انطباع بطعم التسمية ونكهتها.. وبالمقابل فأكثر من مرة في اليوم..بل مرّات بعدد اللحظات التي يكون فيها موضوع حديث، بين الأقربين إليه ومنه، يسمعهم يكنّون عنه بالضمير والإشارة وحركة الأيدي وغمزات الأعين..

أكثر من ذلك.. أكثر من الضمير والإشارة و..أن يسمعهم يتحدثون عن قضايا تتصل به لاعن قرب أو بعد فحسب، بل عن اتصال وجود، ومع

ذلك لايسألونه رأياً ولايُراعُونَ له خاطراً.. يتحدثون عن أسهل طريقة لنقله أو حمله على الأصح.. فيقترح بعضهم قفة يجمعونه فيها كما تجمع أية بضاعة.. يقضي فيها الوقت الضروري من فترة شغل اليوم.. ويتفنن هذا البعض في وصف مزايا هذه الطريقة حيث تسمح بحمله من طرف واحد أو اثنين على السواء، كما أن القفة إذاً غلفت من الداخل بوقاء مشمع تمكن من حفظ ما يعرض من ناتج طوارئ الجسم وعوارضه في قعرها وهذا يحرر المكلف بحسون طيلة فترة الشغل، فينصرف إلى مايريد، ويكف عن التفقد المتكرر لاحتياجات حسون الجسمية بين حين وآخر.. أما غيره فيقترح عربة خشبية هي عبارة عن لوحة متحركة على عجلات صغيرة معدنية، مما يلعب به الأطفال عادة.. فهذه تجر بسهولة ويمكنها أن توفر نفقة المركوب الضروري أحياناً..لكن الاعتراض على هذه وتلك يأتي من عدة وجوه..المهم أن الافتراضات تتوارد وتتداخل وهو قابع يسمع كالغائب، لامن يطلب منه رأياً وَلا مشورة.. بل إنه قابع ومضطر أحياناً بقوة الواقع، أن ينصرف عنهم بسمعه ووعيه، ليتابع حركة الناس، ومواقع الأقدام السائرة القريبة والمنحرفة عن منتحاه في الشارع ، أو عند ركن المسجد الخارجي من أيام الجمعة..وتعود به أصوات القريبين منه، ذوي قرباه، إلى لحظتهم. أصواتهم تعلو وتفرض نفسها على سمعه ووعيه لأنها تتضافر وتَتَّحدُ عندما يريدون منه سماعها، عندما يريدون إبلاغه خلاصة الرأي.. والخلاصة أن عليه ألاَّ يتناول الماء، وبالأحرى أي سائل آخر، قبل فترة الشغل وأثناءه حتى لايحرج أحداً..بل الأفضل وهو الواجب، ألا يتناول شيئاً لاسائلا ولا غيره، تفاديا للضرورات والمحظورات وتيسيراً للأمور.. كل هذا الإجراء لفترة الشغل المحدودة فقط، وبطبيعة الحال، يكون له أن يتناول مايشاء بعد ذلك! يسرح به الخاطر مرة أخرى إلى مواقع الأقدام، وخطوط حركة الناس في تعرجها وانحرافها.. العاطي الكريم.. على العاطي الكريم.. يلوك العبارة ويكررها، يتلقى ويلوك ويكرر، ولايدري منذ متى قد أصبح يجد متعة خاصة في متابعة خطو الناس وخطوط سيرهم، وانحرافاتهم... لاشك أن زمناً طويلاً

مضى وهو يمارس ذلك، بل وهو يجد المتعة الخاصة في ذلك دون أن يعرف أو يعي.. ومنذ عرف ووعى، أصبح يتابع الخطو والسهر والانحراف، لكل الناس، لبعضهم، لمن يريد منهم، لمن يتمتع بذلك منهم!

ياعاطي ياكريم...على العاطي الكريم.. يلوك ويكرر، يتابع ويراقب، يختار ما يتابع، يتمتع بما يتابع لأنه لم يعد يملك ألا يفعل، ولأن ذلك في نهاية الأمر هو كل المكسب والغنيمة، أما ماعداه، فليس له به شأن، لأنه لايملك أن يكون له بشأن.

فترة الزحام، حركة إدارية، متعة إدارية سريعة، حادة الوقع، متقطعة متنوعة ومتداخلة، فترة محدودة وملحة..

فترة الركود، متعة متأنية، طويلة المدى، سطحية، عامة وشاملة..وبين المتعة والأخرى مدى طويل.

قبل أن ترحل من هذه لتلك أو تسافر، فأنت تستعد، وتتهيأ، وتتغير، كما يفعل من ينتقل من قطب برد إلى قطب حرّ..

فترة الرجاء والهناء، خطو النزهة والفراغ، والسير المتوقف، والتوقف السائر، والتقارب والتباعد والتثاؤب والغنج..متعة معاكسة مشاكسة.. تتصيدها فتتهرب منك، تتغافل عنها فتكتسحك، تلاحقها، تلحق بها، تمسكها أو توشك، فتذوب لك، تذوب عليك.. وأنت حسون، يامن أصبح يعرف الفترات حق المعرفة، ومتابعة المتعة، ومتعة المتابعة، تلوك العبارة، تسافر على جناح النظرة في الزحمة والركدة والنزهة، تلمس بالشوق تعاريج الوهم على الجورب المختلس، تلف بالحرقة استواء الساق، تشهق بالرغبة على استدارة الردفين، على انسحاب الخصر، على إشراف الصدر..على الصبح البعيد..على العاطي الكريم..عليك ياكريم..ياكريم الكرماء..

ويأتي كرم الكريم على ألف صورة وصورة، ولا يأتي أبداً رنَّة معدن مجردة، بل مغللا بموجة عبير، محمولاً بكف الرحمة بعناية الأنامل، تشرق بالموت على احتراق الأصابع بالنار، على السوار المخلص لصفاء المعصم،

على ثنية الحرير المعتز برخص الساعد.. تشنق توقاً إلى مسحة النور في الوجه المجلل بالآذان..إلى روعة التبتل في عين التوبة النصوح، إلى الاحتشام والشكر والابتسام لكريم الكرماء على فرصة التوبة وسانحة التكفير.. ماذا جنى الوجه الملائكي؟ ماذا اقترف القلب؟ أيُّ كَرْبٍ عظيم يعتصر السر المكنون في الخشوع؟ يتمنى حسون أن يكون لها الذنب والكفارة والعذاب!

ورغم أن كلا يحب شغله، ورغم أن متعة حسون كأن في عمقها عذاب يستشعره ولا يجد لمن يعبر عنه، فقد أحب حسون ساعات شغله، بما فيها فترات الشارع، وركن يوم الجمعة قرب المسجد ..أحبه لأنه عالمه الرحيب، وفرصته الممكنة ليقول مالايقول، ويفعل ما لايفعل.فرصته الممكنة أيضاً ليفهم ويختار مايريد ويتمتع بما يريد ..أكثر من ذلك إنها فرصته الممكنة ليفر بنفسه من عالم الأقربين وذوي القربى المنتفعين به..أكثر من كل ذلك، إنه يجعل منها فرصته الدائمة الفسيحة عندما يختزن بقوة وعمق صورها ويستعيدها بينه وبين نفسه، وهو يجالس الأقربين على بعد لايُقاس..

كلما طغى صوت الأقربين لإخراجه من عالمه، أحس كما لو صبَّ عليه سطل ماء بارد وهو ينعم بدفء الفراش والنوم والحلم.

كيف ينظرون إليه؟ وهل ينظرون إليه فعلاً؟ هل هو مجلبة للرزق ومصيبة فوق ذلك أو من أجل ذلك؟ أليس فيه غير مطلب الأكل والنوم وتكرار العبارة؟ لاأقل ولا أكثر؟ أبدا؟ تماما؟ متأكدون هم؟ كيف وبماذا؟

أصبح يعرفها لكثرة ما رآها.سر مكنون..خيرة بارّة. محسنة مصدقة محتشمة تائبة. أية تجربة وسر مكنون!؟ أصبح يعرفها ويستطيع أن يتوقع لون جلابتها قبل أن يراها، كأنه هو الذي يختار لها ماتلبس، أو كأنها تطلب رأيه كل صباح قبل أن ترتدي ليومها ما ترتدي ...كأنها المعتنية به، وحدها من بين كل من خلق كريم الكرماء! بالفعل اهتمت به، أو أحس بذلك وفهمه، عندما نفحته من كرمها ..كانت لكمال طولها يجب أن تنحني نحوه أكثر، هو الملتصق بالأرض، وخيل إليه كأنها تتأفف من ريح كريه،

كأنها تأتي حركة خفيفة توشك أن تمسح بها يدها على أنفها اتقاءً دون أن تنظر إليه أو تراه.. تابعها، حمل إليه أكثر وهي تنأى عنه أنها تسحب من محفظتها مشموما يغير ما زكم أنفها من كريه ريحه..تابعها وهي تنحرف باتجاه موقف الحافلة. وقفت. نظرته معها، عليها، حتى خطت ترفع قدماً على درجة الحافلة، فانفرجت فتحة الخطوة على بوابة الذنب والكفارة والعذاب..

للمرة الأولى انتبه حسون إلى أنه يجب أن يهتم بدائرة الأقربين ذوي القربى منه، أي على الأصح يجب أن يهتموا به.. أي على الأصح الصحيح أنه يجب أن يهتم بنفسه. طالبهم بغسله. ضحك بعضهم. أجل؛ طالبهم بحمام له. نظروا إليه بدهشة وملامح سخرية. طالبهم بأن يغتسل ويحلق. انفجروا ضاحكين واختلطت مستملحاتهم عليه..

أوشك حسون أن يهرب إلى عالمه، أوشكت مواقع الأقدام وخط سيرها أن تنتشله، لكنه وعى وقاوم الرغبة، وقال لهم إنهم لايفهمون فلو كان أنظف، لكان المردود أكبر، وترك لهم الخيار.

العاطي الكريم.. على العاطي الكريم..عليك ياكريم الكرماء.. والآن يكرر العبارة بغنة يحس لها طرباً في نفسه، يمارسها بنشاط يلون فيها حسب الفترة والغادية والرائحة..يحس بأنه خلق من جديد، ولو كان يستطيع الوقوف والخطو لصافح الناس، عانقهم وهو على يقين من أنهم لن يتقوا رائحته. الآن يحس بأن منهم من ينظر إليه ويراه فعلاً، ومن ينفحه من كرمه ويتبسم له.. ونتاج ذلك كله أن المردود ارتفع فعلاً، والأقربون ذوو القربى استمرأوا ذلك، وحمدوا لأنفسهم أنهم أعفوا حسون من ثقل أوساخه فزاده الكريم رزقاً، ونصحوه بأن يستفيد جيداً من درس النظافة الذي لقنوه!

مرة أخرى تهجم بقوة على حسون صور من عالمه الخاص، فيقاوم ويطلب منهم في حصة من نهار، أن يضعوه بكل اعتبار وهدوء على محطة الحافلة! عبسوا، قطبوا..ذكرهم بالمردود الذي سيرتفع..

على العاطي الكريم.. ياكريم الكرماء..رآها تقترب، تعودت على

رؤيته. لاحظها تكاد تتعثر وهي تسير وتفتش في محفظتها تهيء ما تنفحه به حين تصله..كان متهيئاً مهيئاً جملته الأولى التي سيوجهها لواحدة من زبائنه..مدّت إليه يدها في اللحظة التي نطق فيها بجملته، في اللحظة التي كانت قد تجاوزته دون أن تسمع أو تفهم أو تستجيب، في اللحظة التي استجاب فيها غيرها الذي كان يخطو على أعقابها، رجل في عنفوان قوته يستجيب، يقول: هاهي عليك ياكريم؟ ويمد يديه يرفع بهما حسون ليضعه في الحافلة.

عليك ياكريم.. ياعاطي ياكريم.. وجد لسانه يخونه في تكرار العبارة.. يتوانى عن التنغيم والترنين والنظرة تنتقل على المسافات الأقصر بين الأقدام..على القرب منه، على بعد شبر فقط، كانت تقف في كمال طولها الذي رنا إليه من أسفل سافلين، من قعر الذنب والكفارة والعذاب. كانت راحتها تمسك مسك الإحاطة بالقضيب العمودي القائم إلى جانبها وذراعها يلتوي عليه، بينما تتكيء أو تستريح عليه بكامل ثقلها الجانبي.. على نحو خيل معه لحسون أنها تحنو عليه، أو على الأصح تحنو على نفسها من خلالها، إذ انها كانت قد انتهت إلى أن تجعل صفحة وجهها البدري على أصابعها المحيطة بالعمود..

شبر واحد، فاصل الذنب والكفارة..أكثر من شبر..أقل منه. كان حسون في موقعه يرنو إلى حركة كعب الحذاء، وإلى حرف الجلابة عندما يتقلص أو ينسدل، وإلى فتحة الجانب عندما تفتر عن ضوء بفعل حركة الحافلة، وتغيير صاحبته لوضعية الوقوف.

شبر يزيد حينا وينقص حينا آخر، ينأى بحسون ويقترب، يحاول أن يدفع بجسمه مقدار أصبع أو أصبعين، لكن كتلته الرصاصية لا تسعف.. اليد تسعف بكامل السهولة. لو مدَّ يده لَمَسَّ ولمس كَما يشاء ولكن مامعنى ذلك وكيف؟ مرة أخرى يجاهد. يحس بقلبه، بجوفه كله يهتز إرادة للحركة، للتنقل مسافة أصبع تنقص الشبر العتيد العنيد دون جدوى..العاطي كريم.. يمدُّ رقبته، يمطط عنقه..يقترب..يكاد، شريطة أن يتحمل وضعه المائل

وألا ينقلب جنباً.. يمد عنقه بمطط رقبته لأقصى غاية التوتر. ميله يصبح مجاوزاً لكل ارتكاز محتمل. لكنه يقترب ويحتمل ويصبر على وضعه المائل وهو يوشك بصفحة خده أن يلمس شلال الحرير الأخضر المنسدل على السرّ المكنون، فتحة النور قاب قوسين أو أدنى.. الآن يرى بكل جسمه، بكل جارحة فيه، تفغم أنفه ريح زكية لاتنتسب لعطر ولا لعبير، عبق لم يخطر بباله حتى في الخيال.. متى كان له خيال روائح العطر والطيب؟ صفحة وجهه الآن بهذا الوضع المائل بأقصى الرقبة تكاد تلمس الحرير المنسدل على الساق حتى كعب الحذاء.. ظلّ استواء الساق يبدو منحوتاً تحت القماش المتحرك ذهاباً وإيّاباً، انسدالاً وانحصاراً بفعل حركة الحافلة.. بينما بقوة خارقة يبقى ميل حسون ثابتاً شاقاً قاتلاً.. العاطي كريم.. على العاطي.. وبحركة اضطرارية مفاجئة يتغير وضع الشلال الأخضر المنسدل، يضايق صفحة خد حسون يضغط عليها بقوة، لدرجة تُحول من ميله إلى وضع مريح يجعله يستند إلى قاعدة ثابتة كانت إلى حين في عين المستحيل منه.. العاطي الكريم.. الآن يرتكن إلى أمن ودفء، يشتم ويتذوق ويلمس.. بكل شعرة في صفحة وجهه.. يحس دماء الحياة تسري تحت خده نقية ساخنة دفاقة.. ودبيباً يسري في قاعدته الرصاصية يوشك أن يجعلها تتحرك.. استكان وبدأ من جهته يترك كل ثقله الجانبي المتركز في صفحة خده يضغط على الحرير المنسدل وظلِّ العمود المرمري الملتحف به.. حركة أحس بها كأن تيار الحياة الساخن الدفاق تحت صفحة خده.. تحت غشاء الحرير يتوقف.. كأن المرأة تضايقت من ضغط صفحة خده.. كأنها أدركت أن قوة الضغط فوق طبيعية.. فاستفزت دافق التيار ليتوقف.. رفع بصره، وجدها تنظر إليه من عليائها نظرة تساؤل واستطلاع، يبدو أنها لم تتخذ بعد، مايجب أن تتخذه من سمت مناسب لموقف لم تتعرف عليه.. توشك أن تفهم توشك أن تتحرك. توشك أن ترفس.. ظلت نظرته مرتفعة إليها في عليائها وسالت على خده دمعة.. انصرفت عنه بنظرتها، عادت إلى وضعها السابق ولتلتوي ذراعها بالقضيب العمودي وتستند صفحة خدها إلى أصابعها

المحيطة به.. أشفقت؟ أهملت؟ تعالت؟ المهم أنها عادت ملتفتة عنه كأن شيئاً لم يكن.. ظل يرمقها لحظة، رافعاً بصره إلى كمال طولها وجلاله ثم خفض بصره.. مرَّ بيده على خده يمسح دمعته المنسابة ومال برأسه متأنياً..حتى أسند عليها صفحة خده ورأسه كله وعنقه..ارتخى بكامل ثقله الجانبي، غاضت فيه نأمة التوتر أغمض عينيه وأصغى لتيار الحياة المتدفق تحت إحساسه.. العاطي كريم.. ياكريم الكرماء..

يقول لأقربائه وذوي قرباه إنه منذ الآن يحتاج إلى أن يتعطر. تكتم الضحكات. لكن المردود يتحكم في الموقف، وتقدم له مرشة الزهر بإنذار واضح صريح..هي المرة الأولى والأخيرة... وعليه ألا يتعود أو يفكر بذلك. العاطي الكريم.. على العاطي الكريم.. كريم.. تبدو له مقبلة سابحة في شلال ذهبي أصفر..يترنم ويتغنى بالعاطي الكريم.. يتمنى وهو يهيء جملته التي لم تسمعها منه بعد، ألاَّ يسمعها غيرها ممن يكون في أعقابها أمام درجة الحافلة كما حصل مرارا. وقبل أن تنحني لتنفحه، يبسط نحوها ذراعيه لترفعه إلى الحافلة لوجه العاطي الكريم.. بحركة آلية توشك المرأة أن تستجيب، ثم تتوقف..لتتم حركتها نحوه، تمد يديها نحوه لترفعه، يطير معها كأخف من ريشة، تحتضنه، يحيط يديه بعنقها ويشبك ساقيه على خصرها يدس وجهه في عنقها وشلال شعرها ومزيج.. الكفارة والعذاب... يشهق يرتعش ...يجرفه تيّار الدماء الحية المتدفقة في كيانها، يسري منها إليه، يسري منه فيه منه إليه.. تشهق المرأة تصرخ.. تستغيث ... يفور في قاعدته الرصاصية التيار، يصعق فيه كل عصب ووريد.. قوة كالفولاذ تعمل على فكّ ذراعيه عن طوق المرأة، جذب بقوة الأسلاك يعمل في أذنيه، شعر رأسه؛ يرفعه أو يفصله مجرد فصله عن كتف المرأة، وشعورها المنسدلة؛ ضرب كالفؤوس، حزٌ كالمناشير يعمل لفك عقد ساقيه المحيطين الملتصقين بالخصر.. تيار قوي يجرفه إلى ما فوق الحسّ والإحساس، تختلط فيه كل الفترات. قارسة حادة متراخية فسيحة متأنية هائنة..

روائح... وأصوات

يسمع من بعيد، تكسر أمواج المحيط على الشاطئ الصخري، يحد من صخبها المتنائي حاجز زجاجي ثخين وترامي أصوات الزبناء المتداخلة .. وتسمع من قريب حركة الأقدام في ثقلها وخفوتها حينًا بعد حين، وهي تتحرك ذاهبة آيبة مابين مقاعدها حول الطاولات الموزعة بكامل الدقة على مساحة المحل، وبين آخر ممر أسفل باب الخروج نحو ركن النظافة. يمكن للأذن الحاذقة أن تلتقط أيضًا حركة الأقدام في اتجاهها إلى خارج وداخل المحل، وحتى الأصوات المتداخلة في الشارع، أصوات المارة، يمكن للأذن الحاذقة في موقعها نحو حمام النظافة أن تمارس لعبة فرز الأصوات المختلطة المتناهية من الشارع عن مثيلتها المتناهية من داخل المحل، ويمكن للأذن تلك، أن تمثل وعاء تصب فيه الأصوات من كل اتجاه دون تحديد.

ينتظر بين الحين والآخر أن ترن قطعة معدنية بدرهم، ونصف درهم، في الصفيحة المطروحة تحت حراسة الأذن الحاذقة. الدرهم أقل رنة وأعمق من نصف الدرهم النزق، الذي يتدحرج قليلا حتى يصدم حاشية الصفيحة ويتهالك مطروحا تضاهي رنته قطعة الفرنكات العشرين...

تدرك الأذن المدربة أن نوعية الرنة ليست بالضرورة من قطعة المعدن، بقدر ماهي من نوعية الرمية، على العموم تحدس الأذن الحاذقة أن رامي الدرهم يتعفف قليلاً، يوشك أن يطرحه بهدوء على الصفيحة، ولأمر ما فإن الرامي الأقل يبخل بحركة يده أن تقارب الصفيحة، يرمي عن بعد بقدر مايمكن.

مع العبير النسوي قلما تحدث رنة خفيفة أو ثقيلة، وتظل الخياشيم بدل الأذن هذه المرة، مفغمة بالعطر تقطعه موجة من رائحة عرق، أو تغيره بعطر آخر.

يلتقط الحس المرهف ظلاً - حيث لاظل - لشبح يقترب ويتوقف، يمكن أن يتهيأ ليرمي قطعة في الصفيحة ويتلكأ ليحتك بإحداهن داخلة أو خارجة. بالفعل؛ تعلو نغمة اعتذار متجاوبة بهوتين تتداخل فيهما خشونة ورقة ... لم يدخلا ولم يخرجا؛ وابتعاد ظلهما - حيث لاظل - يشي بانتحائهما جانبًا من قرب ليبدأ الهمس الصميمي تحول حركة أقدام حادة متلاحقة دون التقاطه، وتعم موجة عبير مبالغ فيه، كما لو أفرغت للتو على صاحبتها زجاجة عطر كاملة ... تمرق الخطوات نحو الداخل، ويصفق الباب بقوة وسرعة لايسمع معها صوت المزلاج؛ وتقترب خطوات مركبة ثقيلة بطيئة متواصلة لاثنين أو ثلاثة، بل لاثنين بعد أن غير الثالث طريقه منحرفًا لوجهة أخرى. تتميز الخطوات عند الباب لاثنين بالفعل؛ أحدهما يتأخر للآخر عند الباب ويدخل بعده. رائحة محايدة لعل موجة العطر السابقة القوية هي الحائل دون تبينها. تتداخل الخطوات بعد عتبة المدخل مباشرة ولايفتح أو يغلق باب مما يدل على التوقف. تغشى الجو رائحة التدخين، إذن توقفا يدخنان أنفاسًا جنب المغسل أمام المرآة .. حركة كثيرا ماتحدث تدل على رغبة في تفريغ حديث صميمي لايراد له مشاركة الرفاق على الطاولة، تمر موجة عطر خابية، لعل رائحة السجائر في الفضاء المحيط قللت من مفعولها؛ يسمع إغلاق مصراع ومزلاج. يرتفع صوت المتحدثين في موقفهما وأنفاس السجائر تحترق بينهما. يلعن أحدهما ويشتم، بينما

يضحك الاخر مخففًا من سورة صاحبه. لعله واضع يده على كتفه، ثم يشتركان في الشكوى .. يمرق العبير الخفيف خارجًا بدرجة أقوى هذه المرة، ويرن درهم خافت في الصفيحة... قليلاً مايحدث مثل هذا ولكنه يحدث ... في الداخل ينتهي الموقف مؤقتًا بانتهاء السجارتين المشتعلتين ويسمع إغلاق بابين بالمزلاج.. تنجذب الأذن الحاذقة نحو الأصوات المتناهية من الطاولات مختلطة بالضحك وأصوات الأواني المترامية من الشارع. أصوات وخطوات حادة وثقيلة لكنها على العموم بطيئة تدل على سعة في الخاطر والوقت...

يخر الماء بقوة في الماسورة، ويفتح باب، يسمع صوت الماء ينساب من المغسل، ثم تخترق الفضاء سيجارة، يمر شبح داخلاً برائحة عرق خفيفة ... يخر الماء مرة ثانية، يفتح باب .. يبدأ حديث مختلطًا برائحة التدخين المترامية في الفضاء، يستأنفان الشكوى، موضوع الانتخابات السابقة والقريبة .. الخ ... لعنة الله على الأيام .. السياسة هكذا. أية سياسة؟! الناس تلعب .. يفتح الباب يتوقف الحديث ... تعبر خارجة رائحة العرق الخفيف، ترن قطعة نصف درهم....لا، بل قطعة العشرين فرنكًا بثقلها البغيض ... اللعب فن .. أما السياسة هنا والانتخابات، فحدث ولاحرج، بلا فن ولاطعم.... قل تجارة والسلام ... تقترب خطوات، يرتسم ظل حيث لاظل ... يعلو صوت بلا رائحة افتقد الشخصين. آه ... يراهما. يستنكر الغياب، تتداخل الضحكات، يدلف نحوهما، ينتقد سحنته في المرآة. يخرج الثلاثة وترن في الصفيحة قطعتان متقاربتا الوقع والثقل دون تميز ... تتابع الأذن الحاذقة خطوات الثلة متجهة نحو مركز الحركة بين الطاولات. تغير الأذن وجهتها، تتبعها، نحو أصوات الشارع .. نفس الحركة المتداخلة من أصوات وخطوات ... لم يتغير إيقاعها.... تغير الأذن الحاذقة تركيزها فيما حولها ... موجة هدوء .. كثيراً ماتحصل بين الفينة والأخرى ... تمارس الأذن لعبة التوقع. ماذا سيتلو الهدوء؟ عبير أم ريح عرق آسن أم صوت أجش أم غنة ناعمة؟ خطو حاد واثق بطئ أم ركض مستعجل ثقيل؟ فترة هدوء مؤقت كثيرا ماتحدث بين الحين والحين.

يمارس الحس لعبة التوقع، ظل - حيث لاظل - لشبح طويل يغطي عين الشمس حيث لاشمس، أم طيف مياس يتهادى؟... مشية الغراب. أم مشية حمامة؟ يمارس الخاطر لعبة التوقع، يرن درهم رزين أم قطعة نزقة طائشة...؟

فترة صمت مؤقتة مألوفة معروفة لاتلتقط الأذن الحاذقة أثناءها شيئًا غير مألوف. أو مألوف ... لابل ... نأمة في الداخل .. تلتقط حركة ... بالداخل؟ كيف.....

حركة بالداخل؟ لم يفتح باب ولا أغلق ولا ... مرق ظل ولاطيف ولاعبير .... آه ... آه. اللعنة ... موجة العطر المفرغ بقوة ومبالغة .. الوقت يتسع لميلاد طفل بأربعة رؤوس وثمان أرجل ... اللعنة ... كيف؟ كل هذا الوقت ....؟ تتسمع الأذن، تلتقط حركة في الداخل حركة غير مريحة.... حشرجة قيء ... لهاث .... اللعنة ..... يراجع الحس المرهف ماحوله. لاظل حيث لاظل، لاخطو.... ينأى الحس المرهف ينأى التوقع .... تنأى الأذن الحاذقة...

على الطرف الآخر

- آلو

يتصورها كالعادة قبل أن تأتي لترد، لابد أن تمر على ألف مرآة لو وجدت. مرة قال لها ملاحظًا ما سماه احتفاء بالذات: إن ذلك دلالة على رغبة في الخلود يسميها عند البشر «العقدة الفرعونية» ... وقال أيضًا إنها إلى حد كبير متقدمة على مجتمعها (الصغير على الأقل) فهي تتصرف كما لو كان التلفون بطبيعته ناقلا للصورة والعطر بجانب الصوت؛ ويجب أن تكون أحسن صورة منقولة وأرق عطر ... كانت تبتسم ... الابتسامة نفسها .. وشموخ قامتها المعتاد. أوشك أن يكوّن بينه وبين نفسه نظرية عنها تؤكد أنها تتجنب النقاش في موضوعين : الحب والموت. كثيراً ما تساءل عما يربط هذين الموضوعين في ذهنه وفي علاقته بها. لم يتعذر عليه الجواب. مادامت ترفض الحب، الحياة، فمن قبيل الاستفزاز، استفزازها على الأقل أن يطرح مقابل الموت. قالت إنه مخطئ أكثر من مرة. مبدئياً ليس الحب نقيض الموت، وثانيًا إنها لاترفض الحب بل إنها تحب. أوقف انسيابها ... لقد وقعت أخيراً واعترفت .. ابتسمت ابتسامتها المعهودة ... وشموخ

القامة المعتاد ...وأخذت عليه تسرعه في الفهم والاستنتاج. أحقا يكون سريع الفهم إذا أوَّلَ كل نأمة من سلوكها، واعتقد أنه على حق في هذا التأويل بعد قرابة عقد من سنوات التعارف؟! يود بالأحرى لو تستطيع أن تغامر. فتعتقد أنها تفهم سلوكه بعد هذه الحقبة. حقبته الطويلة إن لم يقل العشرة الطويلة. فلايمكنها أن تؤاخذه على إعطاء الموضوع أكثر مما يستحق أو إضفاء ما لايجب أن يضفى على العلاقات.

لم يتعاشرا بالمعنى المعروف بالمعنى الصحيح ... ولا داعي لتحديد الطرف المسؤول. إلا أنه كان يقول لمدة طويلة إنها تحمل سراً، وبعد سنوات أصبح يقول إنها تريد أن تحمل سراً، تريد أن تكون سراً... قبل أن ينتهي إلى أنها تعبد ذاتها، تجسد حب الخلود عقدة وعقيدة، ولاأمل في تغيير شيء منها.

الغريب هو الإصرار من الطرفين على اللقاء بعد سنة .. سنتين ... سنوات. تغيب هي لأمور دراسية ... سياحية .. لامفهومة ولامفسرة .. وبمجرد العودة تحدث صدفة التقابل بينهما. يغيب هو لأمور ... لأسباب ... وبمجرد ... تحدث صدفة اللقاء. يمكن أن تكون قد عاشرت أو تزوجت عشر مرات في الخارج. وأمثال ذلك في الداخل، لكنها لا تتغير في الظاهر على الأقل ... معه على الأقل. أنكرت ذلك قالت إن كل شيء يتغير وإنها كذلك تغيرت، لكن الزواج والمعاشرة وحدهما ليسا كل شيء أو أهم شيء بالنسبة إليها! لم يجد إلا أن يتهمها بالثقافة. ضحكت حتى أضاء اللؤلؤ ... وتأودت قامتها الشامخة. التهمة معناها أنها عاجزة عن الحسم! لم تستنكر، لكنها تحسن الهجوم عندما تشاء. وإذا لم نقل إنها تحبه فلنقل إنها تميل ... هل يستكثر عليها الاحتفاظ بمثل هذه المشاعر، رغم البعد والانفصال ... والتقطع؟! إذن هو أقل بكثير من أن يدعي أنه يفهم الطبيعة البشرية، ولانقول المرأة! الدليل؟ إنها أمامه موجودة بالفعل والواقع ... وموجودة بمشاعرها هذه على ألا يلعب اللعبة الرخيصة، الاستفزاز الصبياني، أنْ ها أنذا إنْ كنتِ صادقة؟ لا. تلك لعبة تعرفها وتتوقعها. هنا له أن يكرر

ماشاء من تهم، حتى القول إنها مثقفة بذلك المعنى المخصوص جداً. إذن هي تحب الموت. نقيضُ الحب الحياة هو الموت. تتزين للموت، تتموج قامتها للموت. الأسود الأحمر المتعانقان على قامتها للموت ... خطوها القوي المتئد الواثق للموت .. كل ماليس للحب، للحياة، فهو للموت ... ابتسامتها المعهودة تغيب حتى تموُّج القامة يَغيب .. غمامة ثقيلة لاتخفيها الأهدابُ ولاعمق النظرة الساهمة ... وتعود بعد فترة تنقض رأيها كأنها تفيق .. يكون بدوره قد التقط اللحظة، يسأل كي يفهم .... تبتسم ابتسامتها تلك بتموج القامة المعهود، تقول لاشيء ... لاشيء. إنه يثيرها. يثيرها؟ كيف؟ ويثيرها فقط؟! ترفع حاجبيها الغليظين المقوسين بعناية، تستنكر مبتسمة. تدير الحديث؛ تغير دفته حيث لايشتم ريح الموت. حيث نسمات رخية تداعب الحب والحياة.

كان أقرب لقاء بينهما قد تم منذ شهور معدودات بعد رجوعها من غيبة ثلاث سنوات وحدوث (صدفة) اللقاء بينهما. أراد بالفعل أن يجعله لقاء محدِّداً لماضي ومستقبل مابينهما. عن أي حب تتحدث، عن أية حياة؟ وحتى لايثير في محياها الهادئ المبتسم غمامة ثقيلة جديدة، لن يحدثها عن نقيض الحب الحياة بلفظه المعهود، سيحدثها عن الزمان زمانهما، قرابة عهد .... من لقاءاتهما، تفارقاتهما، مناقشاتهما .. لم تستنكر منه شيئًا.

يمكن أن يقول إنها صمدت لغارته المدبرة. زمانها المشترك سخيف. وليعترفْ بأنه يحيا زماناً خاصاً به في غيبتها أو غيبته عنها، ولايمكن ألا يكون لها زمان خاص وإلا دخلنا في المتاهات، وخرجنا عن الطبيعة البشرية. وزمانهما المشترك سخيف بلا طعم مهما يحاولان ... وصدفة لقائهما السحرية الغامضة تمثيلية طالت فصولها، وأولى بها أن تكون لمراهقين! هل تنتفض دفعا للموضوع أم تأهبًا للرد؟ لا إنما تحركت على الرصيف... تقدمت خطوات ثم نزلت عن درجة الإفريز وتابعت خطوها على الرمال بموازاة الموج، تابعها بنظراته .. كعبا حذائها الطويلان يغوصان في الرمال المبتلة لنهايات الموج المتراجع ... يداعب الريح أذيال الأسود

الأحمر المتعانقين على قامتها الشامخة.
- الو ...
- نعم ....
تصورها كالعادة تمر على ألف مرآة لو وجدت، قبل أن تأتي لترد. صدفتها الفرعونية كما يسميها ... وصدفة لقائهما يصنعها هذه المرة مع الترصد وسبق الإصرار، وعليها أن تكون مثله، بل لن ينتظر منها ذلك. صدفة اللقاء بينهما هذه المرة لن تكون حديثًا عن الزمان، لا عن الحب، ولا عن الموت .. حديثهما لقاؤهما هذه المرة بإصرار ووضوح منه، سيكون عن واقعهما ومستقبلهما عن مشروع مشترك لهما ومنهما وحدهما ... واقع خصب، حي وبسيط ...
- ألو ..
لابد أن ينتظر لحظة قبل أن يأتي صوتها كما يعرفه، وكما لن تتغير فيه نبرة الصوت الأول الذي يجيب في العادة قبل حضورها، وكما عرفه منذ سنوات، يتغير بسهولة غريبة كأنه سائل رجراج دقيق المتابعة لتغيرات الطقس. ستضحك نعماء. لتضحك ماتشاء، فلقد أصبح صريحاً واضحاً منذ لقائهما المرتقب بعد لحظة ... ستضحك، ولتضحكْ من عبارته وملاحظته عن الصوت السائل الرجراج المتابع لتغيرات الطقس. لتضحكْ ماتشاء حتى يضيء اللؤلؤ ويتأوَد الشموخ المحتوي على السماعة بلطفه، ولكنها لن تجيب قبل جهد من التهيؤ للمكالمة بالزينة والعطر والصوت الأغن الأرخم الأعمق الدافئ المطلق..
- آلو ..
يعرف الصوت المتموج الرخيم تتغير نبراته بين جملة وجملة، كما لو كان يتحسس مذاقها، يتملظ بها. صوت الرخاوة والعمق والتنائي .. آلو نعمى ... نطق باسمها وأعاد على غير المعهود ... آلو نعمى ... صوت متنائي يوشك أن يلمس عتبة السمع ... أقصى العتبات ... يتلاشى ... ماذا؟ ماهذا؟ نعمى؟ نعمى ...

عبر الخط يلتقط سمعه أهة عميقة طويلة غريبة على الصوت الرخيم المتموج المعتاد ... غريبة على موقف الزينة أمام ألف مرآة لألف دهر ودهر، من أجل مكالمة جميلة على الأثير ...

آلو ... نعمى نعمى ...

يتمسك سمعه بسماعة الخط .. يمتص كل نأمة عبره ... نعمى ... عبر الخط أكثر من آهة، أكثر من حزن وكارثة ... أكثر من انتحاب ... نعمى .. ليست نعمى .. الصوت الرخيم لم ينتحب ... أبداً .. وحتى لو حصل، لو انتحب لكان حرياً بالنحيب أن يستحيل زغردة وعرساً ... الآهة والهمهمة تتضح ... غمة الحزن والكرب مؤكدة يلتقطها بكل سهولة ويسر، يستطع أن يقول الآن إن صاحبة الصوت تبكي، تستجمع قوتها لتتكلم ... بوضوح ... وضوح لايخفي شيئاً، ولايترك فرصة لخطإ في السمع أو الفهم ..

- نعمى .. الله يرحمها!

هل يسمع ويفهم؟ هل يلتقط حقاً؟!

- آلو .. آلو ... نعمى!

لاجديد. يرتفع النحيب في السماعة أوضح .. الإجهاش أكثر وضوحاً ... لهجة التجلد المصطنع أقوى وجوداً. متى كيف أين؟! لقاؤهما خارج الصدفة المقبل!؟ والمشروع والحسم والعزيمة .... متى كيف أين؟ هل يفهم؟ هل يلتقط حقاً مايسمع؟ هل يفهم صدفة السنوات واللقاءات، صدفة التنائي والصدود عن موضوعهما المشترك .. وصدفة الحب المتبادل العميق .... الله يرحمها ... كانت، وظلت دائماً رحيمة بعلتها ... رحيمة بغيرها ...

قراءة... في القفا

خاتمة ولازمة

تستطيع أن تجلس القرفصاء، ولكن إلى متى تستطيع؟... أو تمدد ساقيك وإلى متى أيضاً تستطيع؟.... تقتعد ورقًا مقوى على الإسفلت - لافي الصيف- إلى متى؟... أو قطعة خشب في حجم كمشة اليد تشي باحتمال خازوق أو عشق نرفانا .... إلى متى تستطيع؟ وإلى متى تحتمل لحظة، ساعة ساعة .... رقعة جامدة خاوية بلاتمييز، بلاهدف ... إلى متى؟ إلى متى على الرقعة توقع الخطوات، تضيع الخطوات .. تتعارض، تتصادم الأقدام تصادم النمل قبل أن تعيد طريقها ... إلى متى يصيخ السمع، يظل يصيخ، يصيخ يظل وقع القدم، ثقل القدم، لميش القدم ...

إلى متى تستطيع الموت، إلى متى تستطيع الحياة؟!

في الصيف

الكعب سميك متوسط. اللون رماد، خدوش في المقدمة أحدثت عطبًا على عمق قد لاينفع فيه الدهن. الدهن نفسه ليس رمادياً تمامًا. هو بالضبط

عكري، ولكنه يرتد بتكرار الفرشاة الناعمة، والخرقة القطيفية واليد المدربة. حركة اليد المتقنة ذهابا وإيابًا جانبيًا أفقيًا في المسح، تثير حركة بلهاء مماثلة في اليد الأخرى كاهتزاز شلل منتظم أو كركوز. ينحرف مقدم القدم عن موقعه الخشبي المضلع قليلا بما يشي بأن صاحبه يلتفت، يتابع، يستدير، تكاد القدم تنزلق عن موقعها بعد أن أفلت منها نصف المضلع أوكاد. لن ينفع النقر لتنبيه الصاحب مالم تختف صاحبته المثيرة عن بصره، ليرتد إلى وضعه. أخيراً يستقيم وضع القدم. لابد أنه تنفس أخيرا. ليس من الضروري أن تكون صاحبته ساحرة أو فاتنة بقدر ماهو قابل للإثارة. مرة خطف أحدهم قدمه فجأة قبل أن تستوي، وطار وراء إحداهن مخلفا وراءه درهما وحركة يد آلية بلهاء مجمدة في الفضاء. صاحبنا الآن يريد كسب ماتبقى من الوقت، ووجهه لاشك مستدير ممتلئ الخدين .. ينبئ متوسط الحذاء بذلك في عرضه وارتفاع حقه. جودة الجلد متوسطة. ولكن العناية واضحة، وصاحبنا يجب أن يكون كهلا كليل البصر حتى يعتني هذه العناية بنعله اقتصاداً... وحتى يصطدم بهذا الشيء الصلد الذي أحدث هذا العطب العميق المحدود في نقرة مقدم الحذاء.

... في النعل

التربة غريبة، لارملية ولاسوداء ولابيضاء، وليست خليط هذه الألوان مما تصنعه بعض أزقة المدينة أو حفرها. تربة وافدة لقدم وافدة إلا أن يكون صاحبها مالك كنز ترابي خاص تحت أرض المدينة المعروفة. مع ذلك، دائرية النعل أو على الأصح مقدم القدم المفرطح العريض ينبئ أن صاحبه بعيد عن مراعاة ماهو سائد متجدد في الأحذية. نوع التربة عمق التربة الملتصقة، سمكها وتلاحمها يدل على خطو قوي في كنز تربة رخوة لاتعرف التعبيد عن قرب أو عن بعد. ولا أمل في أن يفيد الدهن شيئاً، فلون النعل حائل بفعل تعاقب الفصول والتكرار، والهدف التنظيف لا التلميع، والغاية منه دخول إدارة مخزنية دون إثارة أو إزعاج لرخام أرضيتها أو ... زربيتها إن

ساعد الحظ، إذا لم تستعمل الفلاقة المعدنية لحق الدهن في الكشط بقوة، فصاحبنا سيطلب حتماً ذلك بنفسه، وتكون فرصة لسماع صوته. الصوت يجب أن يكون ملينا غليظاً متهيباً، والقلب يجب أن يكون واجفاً، ينتظر مصير القضية المصيرية المعلقة باستيناف أو نقض وابرام. مستوى الجوربين متفاوت الارتفاع على الساقين ينبئ عن تفاوت أفظع داخل النعل، ويمكن الرهان على أن أصابع القدمين توشك أن تخرق النعل مباشرة إذا تحركت بغير انضباط. شعر الساقين المكثف الفاحم يدل على حيوية طبيعية. الحزام مشدود أقوى شد على بطن يجب ألا يكون مستهلكاً متلافاً قبل تحقيق الهدف والعودة الظافرة إلى التربة الغريبة. لابد أن تحملق العينان بشدة في حركة الكشط والدهان والمسح، حركة البدعة التي ما أنزل الله بها من سلطان في تربة الله ... أرض الله .... والله يرحم الوالدين .. والوجه الزين مرضاة الوالدين.

.... في الشتاء

كعب الحذاء عال واللون فاحم، دقيق المقدم دقة القدم ذاتها، دقة الساق دقة الأنف دقة الفتوة دقة الفحولة، دقة حدة البنطلون. التوافق ظاهر ولاتخفى الأناقة. الجوربان كالزرقة في سواد يبدو أحدهما مقلوباً. أي تنبيه لذلك الوضع مغامرة لايعرف وليدها. الأفضل ترك الأمر على ماهو، لايمكن أن يكون مهملا في هذا التكامل. المحتمل أنه غادر على عجل، والأكثر من ذلك أنه غادر يعدو، أو على الأقل قطع مسافة في الركض. تنفسه اللاهث يسمع ويرى من قدمه، أكثر من ذلك، قدمه ترتعش، وتثبيتها بجمع الكفين على المضلع، يمكن أن يشي بدفئها وحركة تنفسها اللاهث. فعلا. التجربة تثبت ذلك. الإنسان يتنفس من قدمه. أكثر من ذلك، أنه رمى بقدمه على المضلع الخشبي كما يرمي قطعة أجنبية عن كيانه. رماها وحط بها على الصندوق بكل ثقله يستريح. أغلب الظن أن صندوق الدهان في هذه البقعة بالذات، كان فرصة مريحة له. كالمطارد أو المطارد. يستغل هذا الوضع

لإيهام له أو عليه، لإفلات أو لإيقاع. وأغلب الظن أنه يسوي جزءه الأعلى ليستعيد هيئة لاتثير شكاً. الآن أصبح الوضع طبيعياً. استكان قلق القدم وارتعاشها فوق المضلع. فترت حرارتها، والقدم الأخرى على المربعات الإسفلتية الصغيرة الجامدة تتحرك بإيقاع طرب. الآن يتحرك ملتفتاً التفاتات يسيرة هادئة، يشي بذلك وضع القدم على مضلعها. لن يخفض بصره أو يتابع عملية المسح ... وليس ثم مايمكن أن ينبهه إلى وضع الجورب المقلوب. الحال على كل حال ليست في مستوى من تفاجئك قدمه اليسرى، بجورب مخالف اللون، لقدمه اليمنى، ويتركك تخمن إن كان الشجار الزوجي أو السرعة أو الإهمال سبب البلبلة، أم هو في النهاية فن جديد ... ولا الحال على كل حال، في مستوى من تفاجئك قدمه الثانية بالعري داخل النعل خلاف اليمنى. اليمنى على كل حال أصل. وتعتبر اليسرى دائماً نشازاً أو تجديداً مقصوداً، يلعن الوسواس الخناس بمجرد ماينبهه ملمس الفرشاة لبشرة القدم العارية ... يخطف قدميه معاً دون أن يترك وراءه فلسا، ذاهباً إلى حيث يرتدي الجورب الثاني أو ينزع الأول. لاداعي لممارسة أي تنبيه، وعندما يحدث ولو بالصدفة الطارئة ... فمن يدري...؟

.... في الوجه

يقول العارف: الحرفة الناجحة زبونها الطفل أو المرأة أو هما معاً، ومن لك بمن ترفع عن ساقها - إن كان يحتاج إلى الرفع عنه - لتضع كعبها أمامك فوق المضلع الخشبي. وفوق ذلك أي نعل تحتذي المرأة مما يصلح ليحرك حرفة كهذه؟.... إلا في الشتاء، حيث تتسلق أعناق النعال سيقانهن إلى ما دون الركبتين أو يكاد .... ولكن ومع ذلك ! الصندل الصيفي خبيث وأخبث منه منتجات البلاستيك حتى في غير صيف ولا حر. صاحبنا الآن على وعي أو فضول بما يجري تحت عينيه كأنه دهان نعال بالطبع أو محترف. كرر له المسح والفرشاة وأضف، أضف من الدهن واحترس حتى لاتصيب الجورب بأثر، ولاتنس أسفل الحذاء - لايقصد الوجه الموالي للأرض

بالطبع - ودونك هذه البقعة ... لاتتعجل على وفي المسح بالقطيفة قبل جفاف الدهن تماماً تماماً. ولم التسرع؟! هنا .. هناك... دونك .. حذار ... مهما يكن فصاحبنا في فراغ، في سعة من وقته ولايبدو مستعداً الآن، ليفهم أن ثم زمانًا وحرفة وارتزاقاً وحاجة... أخيرا عندما يدفع ... يدفع وينتظر المرجوع ... يعد الباقي ويتأكد ويعيد. ربما طاف بخاطره دهن القطع النقدية..! لا، إنه ينصرف أخيرا اخيراً، لماذا يكثر مثل هذا الصنف مع الحر؟ لقلة الزبائن أم لتميع الزمان وحلاوة التلكؤ؟ أين يكون قد اتجه الآن مثل هذا الصنف؟ يتمطى أمام الواجهات؟ يتفحص المعروضات؟ يساوم برغبة ميتة في الشراء؟ ... أجسام متمايلة .. المربعات الإسفلتية الجامدة هي هي لاتتغير إلا بين البلل والجفاف في الصيف والشتاء. تخدش وجهها كل يوم مكنسة عجفاء تخلط أعقاب السجاير بنفايات الأوراق بالبصاق الآدمي وتركة النعال. تتعارض عليها الأقدام، تتصادم تصادم النمل قبل أن تجد طريقها وتعيد ....

الغائب

أذناب القطط المرقطة تتلوى خارج فوهة سلة الزبالة، وأجسادها مغروزة في الداخل. حركة الأذناب خارج الفوهة تتحرك بما ينبىء عن نشاط الأجساد في الداخل، تتقوى الحركة بشدتها عميقاً فتقلب السلة جانبياً، تتشتت محتوياتها، ينفرط في نفس الوقت عقد القطط في فترة ارتباك... في الفترة نفسها، يغيب فأر كان يطل برأسه من بين القضبان الحديدية لغلاقة الماء «الحار»، يعود شمل القطط إلى التجمع حول المنتثر من محتويات السلة... يعود الفأر مطمئناً بإطلالته الحذرة، مكوناً بلا شك طليعة نظائره المنتظرة المترقبة.

يفتح الباب الخشبي المصفح بالمسامير الغليظة لمنزل الحاج بندريس. زينت طلعة الفتى فضاء الزقاق، تمطى قليلا والتفت يميناً وشمالاً، تفقد السماء والأرض، وسوى من هندام لم يكن في حاجة إلى تسوية، ثم التفت إلى فراغ الباب نصف المفتوح وراءه، وبسبس بصوت خفيض... ظهر على الأثر كلبه «الملاكم» بأنفه المغروز في عظمة الوجه وتكاميشه الغائرة السوداء. مسح الفتى على رأس «الملاكم» وظل لفترة يتحرك في مكانه،

والكلب يتمسح به...فجأة قفز الفتى يجري في الزقاق، فوجيء الملاكم بالحركة، جرى وراء صاحبه..توقف الفتى فجأة بينما تجاوزه الكلب وتوقف بعده بخطوات.

ابتسم الفتى لنجاح مناورته، أمسك بالكلب من أذنه كأنما ينبهه لعدم يقظته. اتجه نحو رأس الزقاق..انفرط عقد القطط متفرقاً في كل اتجاه يتسلق الجدران..اختفى الفأر الطليعي... واتجه الملاكم صوب القمامة المغرية المنتشرة..نداء الفتى وإغراء القمامة متعارضان ..اكتفى الملاكم بالتشمم القريب والبعيد، وظل يحوم حول صاحبه الذي كان يخطو بخط غير هندسي، تمطى الفتى قليلا وسوى الهندام...انجذبت قدماه نحو القمامة المنتشرة، عبث ببعضها قليلا...كوم بمقدم الحذاء مجموعة بقايا قشور برتقال وبطاطس..وجد ما هو أفضل..ورقا مكوماً على نفسه وعلى شيء داخله... سواه بالقدم ..أمام القدم..وللقدم... وقذف بأقصى ما عنده...ارتسمت على الجدار المقابل لطخة كبيرة لزجة...رنا إلى لطخة مقدم الحذاء ...بصق ولعن، « دين أمهم وبوهم » وطفق يتجول بنظره فاحصاً المكان، يبحث لا شك عن أداة صالحة لتنظيف الحذاء من لطخته... انتهز الملاكم فرصة الهدنة لينعم بتشمم صميمي للقمامة المنتشرة ..مرق الشبح الجميل بسرعة خلف الفتى..لم ينتبه الفتى إلا ونسمة عبير تمر به...التفت، كانت في رأس الزقاق مولية ظهرها مستعجلة ...نظر إلى حذائه في حرج كأن رجله ليست منه، كأنما يصعب عليه اقتلاعها من وحل عميق كثيف..لعن « دين بوه ومه..» وبصق...ثم اقتلع رجله، وراح يظلع بسرعة نحو المنزل كأنما لطخة الحذاء أصابت قدمه بالعرج...لم يلبث أن ظهر بدراجته البخارية متحرقة للانطلاق، ارتمى على سرجها ضاغطاً على السرعة في نفس الوقت، تمايلت في غير توازن واخترقت به غمار القمامة إلى القدمين....

توقف متحرقاً عند رأس الزقاق يسرح الطرف الحاد يميناً وشمالا..أين اتجهت؟ من هنا؟ من هناك...؟ بصق..لعن قبل أن يطير ...طار بجانبه الملاكم متحمساً، رماه بركلة أوقفت حماسته...وطار.

برزت ربة البيت من وسط الزقاق، بمنتصف جسدها الأعلى المندفع خارج الباب، التفتت يمينًا وشمالا مرة وأخرى. بدت سلال القمامة مرصوفة أمام الزقاق في غير انتظام كرؤوس مقطوعة.

شدت حولها حزام الروب الثخين، ولفت طوقه المفتوح حول صدرها، ورمت قدمها على أرضية الزقاق، توقفت عند سلة القمامة المنتصبة، جددت نظرتها إلى السلال المرصوفة أمام الأبواب...تأففت...حملت السلة بيدها متحاشية أن تنظر إليها. خطت نحو الجانب الآخر من الزقاق...تأففت ..نظرت يميناً وشمالا..أفرغت بعض محتوى السلة في سلة نصف ملأى..والبعض الآخر في سلة أخرى...فاضت القمامة...وترامى منها شيء على الأرض...فغمتها ريح القمامة، شدت على أنفها متذمرة.. «خزيت.. يالطيف..» عادت بسلتها الفارغة وأقفلت عليها الباب.

في أقصى طرف الزقاق ارتمت على الأرض مكنسة دوم قصيرة مفتولة المقبض.. أوشكت أن تنتهي مستقيمة على شاشيتها لكنها تمايلت واستقرت جنباً.. من فراغ الباب اندفعت صبية وراءها يد سرعان ماتراجعت.. تقدمت الصبية نحو المكنسة، تناولتها، نظرت إلى الزقاق ثم حولها متريثة.. وبدأت تكنس بإهمال.. دفعت بتناثر الزبالة يميناً وشمالا، بما يمثل جزيرة أمام الباب، فتحت في غمار المتناثر ممراً.. رمت بالمكنسة نفسها.. ثم استدركت.. وعادت تلتقطها وتدخل.

موجة عارمة عابثة من طيش صبية المدارس، دلفت في عنف وضوضاء يسابق بعضها بعضاً. اخترقت الزقاق حتى أوقفتها نهايته المسدودة. وقفت صفين متواجهين متحديين.

من يخترق صف الآخر؟ من يسد ويصد؟ لحظات تحفز ثم اختلطت الأكتاف بالأرجل.. ارتفع الهتاف.. ثلة القطط المرقطة مذعورة على الحافات ترقب.. ينفرط العقد... يختلط ويتجمع لينفرط، تتعثر الأقدام بسلال الزبالة.. تختلط الأحجام القدمية الصغيرة بأحجام السلال.. ترتفع حمية المعركة، ترتفع القطط.. ترقى إلى آمن وأبعد... تكل الأطراف، تخمد

حماستها، ترتفع حمية الألسن، اللعن يختلط بالسباب والشتائم.. واللعنات.. يفتقد كلٌّ آثار المعركة في بدنه وثيابه.. ينفض ويستجمع ويسوي ويشتم.. تثور الموجة من جديد يسابق بعضها بعضا تاركة فضاء الزقاق... تقفز إلى الساحة القطط المرقطة...

كر الفتى بدراجته البخارية المتحرقة، انعطف مع بداية الزقاق بنشوة المنتصر.. تمايلت به يميناً وشمالا في المحتوى المتناثر، وانسابت من تحته إلى الأمام.. تسبقه تتحرق على جنبها حمية.. دون أن تكف عجلتها عن الدوران.. قام بتلكؤ يتوكأ على راحة إحدى يديه.. على الأرض ويمسك بالأخرى وركه...

توقف الشيخ المهيب متأبطاً لبدته على رأس الزقاق.. تعوّذ سرّا.. تعوّذ جهراً.. رفع أذيال جلالبته وطفق يخطر في المتناثر بغاية الحكمة والأناة..

حارس الجنة

تحرك العوني وهو يلف حول صدره طوق معطفه الطويل، والكشكول المحيط برقبته، اتقاء برد الليل الذي بدأ يشتد. رطوبة النبات والشجر تضاف إلى رطوبة الفصل الشتوي، ورطوبة بقعة بكاملها معزولة بين الشعاب، لاتصيبها أشعة الشمس إلا فترة قصيرة في منتصف النهار.

أضاء مصباحه الكشاف القوي "يريك الشعرة في الماء!" وتجول به في منطقة الشعاب المحيطة بالأغراس، كأنما يؤكد لنفسه صدق خواطره حول رطوبة البقعة، ثم دار نحو الأغراس فانعكست الأشعة الكاشفة القوية على غابة البرتقال المنظمة مدلاة أغصانها بالعطاء. "الحبة بطيخة " أي والله. "قد البطيخة و.. وأكبر!".

أطفأ مصباحه ولمجرد مشهد البرتقال داني القطوف، عبرت خاطره شهية التذوق. أية عذوبة أي عسل تنفرد به غلة البقعة! ؟ شهية عابرة غير ملحة.. لا تستحق أن تكبح ولا أن تلبى، وربما يكون الوحيد الذي بإمكانه أن يأكل من هذه الغلة حتى تموت فيه الرغبة والاشتهاء، وقد لا يتذوق البرتقال لليالٍ وأيام متتابعة؟ ولكنه عند الانصراف، عند انتهاء نوبته الليلية

يملأ جيوبه الواسعة ببضع حبات من أجل السعدية.

تملأ السعدية حيزاً من فراغ الباب بقامتها تلك، وتستمر لفترة حبيبة ممتعة في موقفها ذاك، مولية ظهرها لداخل الغرفة ويداها إلى الخارج، تنظف بعنايتها كأساً تلو كأس، ترمي بمائه في الفضاء خارج الغرفة وتنحني على الصينية الصغيرة، تضع وتأخذ .. "كلْ" .يعيده أمرها إلى نفسه، وإلى اللقمة المنسية في يده. أية عذوبة، وأي عسل...؟ أمارات المتعة البادية على ملامحه لا تغري السعدية بأن تساءل عن علة شروده "كل"... وتمد يدها تشاركه، تلتقط بعض الخضر من صحن البداز.. لتعود إلى الصينية الصغيرة تعد الشاي. يحدثها عن لذة طعامها، وحذق اليد الصناع. يرمي بلقمتين إلى الكلبة المقعية أمام العتبة، ويتابعها وهي تلعق الطعام بلسانها الطويل حتى تلحس الأرض. يلحس أصابعه بعناية، وهو يحمد الله ويشكره على الطعام وعلى السعدية! .. تضحك في مرح وتميل نحوه تمد له الكأس، يحدثها عن طيبة الشاي ونسمة الشيبة والنعناع .. تذكره بالوقت ..تنبّهه إلى قرب بداية نوبته الليلية.. يسألها ماذا يحدث "في ملك الله الكبير" إذا..إذا تأخر.. تضحك وتنبهه إلى الوقت من جديد. تمد له المصباح الكشاف. يتناوله، يداعبها.. ولا يلبث أن يتأخر قليلا عن موعد نوبته الليلية.

أخ.. ما الذي يجعله يذكر ذلك الآن. جذب طاقيته الصوفية إلى ما تحت الأذنين، وظل يتحرك بمحاذة الأشجار... ببساطة، هو الوحيد الذي يرتبط اسمه بالحراسة الليلية. الوحيد الذي يتقنها، وتساءل بالفعل مراراً: لمذا يتقنها ؟ أو على الأصح، ماذا فيها مما يستحق أن يسمى إتقانا؟ ألا ينام؟ بالفعل هذا بمستطاعه لدرجة أنه يتعب من قدرته على ألا ينام عند ما يريد. لا يغمض له جفن أثناء الحراسة! ويعتقد أن كل البشر يقدرون على ذلك إذا أرادوا.. ومع ذلك فقد نام أحياناً عن عمد... ونوماً طويلاً... ومع ذلك ظل في العرف هو هو، ذلك العوني حارس الليل العتيد القدير... لا يسرق شيء أثناء نوبته. صحيح. قد لا يجرؤ سارق على مداهمة الغلة أثناء نوبته إذا عول على ذلك.. ومع ذلك حدث ... ومراراً أيضاً، أن ضبط

السارق... أحياناً تغافل عنه، أو لم يبال ... وأحياناً جاء السارق في حلة مستضعف يستجدي الغلة... واستجاب العوني لذلك، ومع كل هذا وذاك ، ظل العوني ، في العرْف الذائع حارس الليل القاهر.

اللحظة الوحيدة ـ ولكنها عابرة ويريد لها أن تكون عابرة ـ التي تخالط دفء الفراش السعيد ، هي تلك التي تأتي والعوني متحرر من حراسة الليل، وهي دائماً تلك التي يبحث فيها عن يد السعدية، فيجدها على بطنها تحسسهُ. لا يهم. الذرية بيد الله. عندما يشاء يمنح. لايهم ... كان هنيئاً بفراشه، والباقي لا يهم، أو أنه في الواقع يهم كثيراً ولكن ... ولكن إذاً وضع الكون بما له وذريته ونسائه في كفة... ووضعت السعدية في الكفة الأخرى... فالعوني متأكد مما سيختار، متأكد لمجرد أنه لا يستطيع أن يتصور حياة بدونها!

...الريس على كل حال، يساهم إن لم يكن المساهم الأكبر في خلق العرف السائد حول العوني وحراسته تلك. ما من مرة أسند فيها الحراسة الليلية لغيره، إلا وعاد إليه... مشتكياً من عدم النجاعة وقلة المروءة في الآخرين... والأجر مضاعف... والعوني إن لم يكن ميسور الحال، فهو بهذه الحراسة يعيش أحسن بكثير من غيره... وفي استطاعته يوم السوق أن يعود بقفة اللحم والخضر... أن يشتري مرة تلو أخرى وحتى خارج يوم السوق.. شيئاً من لحم رأس البقر... وأحيانا أخرى يعود برأس أو رأسين من الغنم أو الماعز مع أشياء أخرى يحبها مع طعام البداز... ثم هو استطاع كما لم يستطع ذلك غيره في الدوار، أن يستغني عن النوالة ويبني غرفته بالحجر والإسمنت المسلح... وهناك إلى ذلك، بضع مئات من الدراهم، مدخرة بأمان في صندوق الأمان السعدية، التي تحسّن بمقدمها إلى عتبته كل شيء.

حتى في غير أوقات الغلال.. .فالريس يجد للعوني حراسة ليلية لشيء ما. وما أكثر ما يجب أن يحرس . البيادر وقت المحصول... والحقول نفسها قبيل الحصاد، حتى لا يرمي عليها متعمد أو مهمل عقب سيجارة فتشتعل... وأحياناً أخرى ورشة بناء، تكون في حاجة إلى حارس ليلي يقظ حتى لا يسرق الإسمنت...

وفي النهاية عندما يكون العوني خارج حراسته الليلية، فتلك حالة مؤقتة.. كأنما الريس والعرف الذائع يستعمل غيره، لمجرد أن يقيم بالحجة والعيان أنه الأصلح.

في جنان البرتقال بالذات، ولأكثر من مرة، أصبح الريس يعنف غيره ممن تولى حراسة، لأنه وجد آثار أقدام ليلية عابثة .. أو آثار ثمار متسربة أو مأكولة! والعوني وحده الذي يتقن الحراسة الليلية. تعمد مرة أن يصطنع آثار عبث بالغلة، وعندما أصبح يتجول مع الريس، تعمد أن يريه تلك الآثار متذمراً من هؤلاء الذين يستغلونك رغم ما تبذل من جهود اليقظة " يكحلو وجه الواحد" كأن الريس لم يسمع أو يسمع ولايفهم... وسرعان ما أنهى جولته قبل تمامها، وقفل عائداً نحو سيارته، والعوني ينتظر رد الفعل. بدأ الريس ينزع حذاء المزرعة «البوط». وسارع العوني إلى صندق السيارة يسحب منه الحذاء اللماع.

تابع حركات الريس وهو ينتعل ويريح قدميه في الحذاء، ويحرك أطرافه، ويتمطى في الفضاء يسوي هندامه، ثم يصعد إلى السيارة. يدير المحرك، وقبل أن يغادر يوصي العوني بأن يأخذ شيئاً من الغلة إلى بيته.

لحظة ممتعة حقاً... وأي متعة تفوقها عندما تعود في باكر "الصبوحي" مجمد الأطراف من شدة البرد، وتندس في الفراش الدافئ، لحظة لاتشعر فيها بشئ، كأن أطرافك ليست منك، ولا أنت منها. ثم يسري الدفء والارتخاء، فتشعر في نهاية الأطراف بوَخْزٍ خفيف دقيق ومؤلم لذيذ... ثم يبدأ الارتخاء . . . أخ... ما الذي يحضر هذه الصور الآن؟ ولم يتحرك العوني كأنما يطرد الصور المضايقة، ويشغل مصباحه الكشاف، يطوف به على الشعاب المنتصبة حوله، ثم يعود يتجول بالشعاع على القطوف الدانية الموردة. صحيح.. يبدو البرد الليلة أشد قليلا ...قليلا... من المعتاد في الأيام الخالية القريبة، ولكن العوني قاسى برداً أشد طيلة سنوات من ممارسته حراسته الليلية، وسيقاسي برداً أشد في ليال وسنوات مقبلة ... وإنما في الواقع ... يضايقه برد الليلة في الواقع... تضايقه الصور الملحة

لذكريات الدفء القريبة وفراشه السعيد ... تضايقه... تضايقه كأنماهولن ينعم بالفراش والدفء والسعادة بعد ساعات معدودة... أربع أو خمس ... متى أصبح... كأنما هو لم ينعم أبداً بدفء أو فراش، أو على الأصح، كأنه لا يعرف الدفء حقا والفراش حقاً..

يتحرك لمجرد أن يتحرك، لم يخطر بباله حتى أنه يتحرك ليسخن، وتواجهه حينئذ بوقاحة لامثيل لها ماذا..؟ لو ...؟ عجيب ! يتوقف كأنه فجأة أمام جدار غير منتظر في طريقه... يوشك أن يبتسم ساخراً، ولكنها تواجهه بكل الوقاحة: ماذا لو .. سرقت ساعة... ساعتين...وتنعم بدفء حقيقي في فراشك؟ يبتسم حتى يحس بنفسه يبتسم ابتسامة غامضة في وجه الفكرة الغريبة الوقحة. وماذا يحدث .. "في ملك الله الكبير".. لو فعلت ذلك.. ثم رجعت لتصبح في مكان حراستك ؟! العرف سائد بأنّ العوني حارس لا يقهر... لا يغفل ولاينام. لتكن تجربة.. وينتظر رد الفعل؟ومن سيعلم ؟ فكرة جريئة وقحة! يدرك الآن لماذا تلح عليه الصور الدافئة السعيدة.

ويتحرك ... يتحرك كثيراً ويتوقف بلا استقرار. تغيب ابتسامته الغامضة من الفكرة. بل تغيب الفكرة ذاتها من مواجهته، تصبح فيه، تحركه، تدفعه، تخطوبه... يشتم رائحة الدفء على بعد مئات وآلاف.. كالفراش المسحور بالضوء.. يشتم الدفء على بعد آحاد وعشرات... تحوم الكلبة حوله، تتسمح بأقدامه المألوفة.. تتضخم رائحة الدفء... يتقدم نحو العتبة. يمد يده ليجذب مصراع الباب. ترتطم قدمه من لهفته، بشيء خفيف لاحس له في الظلام ولا شكل . يشعل مصباحه الكشاف، ترتسم على الأرض بقوة الشعاع فوهتا حذاء.. يخلع المصراع يندفع بجنون...

باط الخروب

لا تستطيع أن تجزم إذا كان الأصل "بطن الخروب" أو "ابط الخروب" لا تستطيع أن تعرف على وجه التحديد علاقة هذا الابط أو البطن بالخروب. تستطيع أن تسرح في خيالات وعوالم تقارن الماضي بالحاضر والحاضر بالمستقبل. تستطيع أن تصل إلى صورة مساعدة على الفهم... لا تستطيع أن تقتنع أو تتأكد. تستطيع أن تخلق إمكانات... تتخيل وقائع، أما الحقيقة... الحقيقة.. فتظل متمنعة. تستطيع أن تجد متعة لذيذة معذبة في تصيد خيوطها، خيطا خيطا. رفيعاً رفيعاً.؟ إذا كنت بوعلي وفي جوف الليل وحيداً إلى ظلامك الحالك، إلى انتظارك وتوجسك، وحيداً إلى بندقية وعزم جاهز للإطلاق!

يستحضر بوعلي أسماء ومسميات عديدة لبقاع أخرى ما أكثرها: بلدة الكصعة (هل سميت كذلك لاستوائها) أم لأن كائناً ما، رجلا أو امرأة مربها أو سقط يحمل قصعة؟ وبلدة الرويس ومزكلة وعيناس؟ متعة لذيذة مغذية ،شبق طفلي يطارد في الحلم فراشة ما تكاد تحط إلا لتطير، ولا تستقيم إلا لتنحرف، أو تقترب إلا لتبتعد. بوعلي والحاضر المهوس،

وفضاءات باط الخروب يتقراها في الظلام بسطة وانحداراً صخرة صخرة، دومة دومة، تربة وعشباً، دون أن يتحرك من مكمنه أو يبصر في الظلام أو يشير... يتحسسها تعاريج والتواءات دون أن يتعثر به خاطر أو قدم...

يطول الليل، يطول النهار.

غيبة الحبيب كيه بالنار.

مارى ماشاف.

لعبة مسلية في قسوة انتظار طويل صامت، مقاطع أغنية تتردد بين الحلق والصدر، تموت دون اللسان والشفتين، يتردد صداها في الجوف. رغبة ملحة في إشعال سيجارة يجاهد بوعلي في مقاومتها. معركة ضارية فعلا يخوضها الرجل ضد الرغبة العارمة في التدخين، تترجم إلى أكلانٍ في الشفتين والجنبين والصدر والأنامل...

يتحرك بوعلي في مكمنه، يغير من وضعه قليلا إلى وضع أكثر راحة، يطرح البندقية جانباً، يحك يداً بيد عدة مرات، يتمطى، يحك جنبيه، يصادف موقع علبة السجاير في جيب الصدر يقاتل رغبته الملحة في التدخين، ويعود إلى احتضان بندقيته بيديه. يطول الليل ويطول النهار.. أنت لا تنتظر حبيباً أو عشيقاً، بل ذئبة ماكرة! أقل حركة أو صوت يهدم كل شيء ويعود بك إلى سهر ليالي أخرى دون جدوى؟ أما أن تشعل وقيدة، وتولع سيجارة مهما بالغت في التخفي، فالذئاب تتصيد ريح النار والدخان من بعيد بحذق لا يتصور. وعجيب أن تسكن الذئاب باط الخروب... عجيب لأنه خطير يمس بوعلي مساً غير رفيق ولاهين... وعجيب لأن باط الخروب مغر بطبيعته للذئاب والثعالب، تنوعاته، سهوبه ووديانه.......وأعجب من ذلك كله أن تحل به ذئبة... أنثى. في البدء كانت كالإشاعة.. شهادات باهتة بأن أشخاصاً تراءى لهم شبح ما. لأمر ما تمتنع الذئاب عن العواء عندما تحل بمكان في الأيام الأولى ...لا تبدأ ذلك قبل اليوم السابع! وظل بوعلي يكذب الإشاعات لأنه يتمنى ألا تصدق. ولأنه كان يتمنى ذلك لم يتابع حساب الأيام في انتظار سابعها، مؤكداً لنفسه أنه لا يعرف منذ متى

يعد لتناقض الإشاعات... مهما يكن، فنزول الذئب بواد لا يمكن أن يمر دون عواء ولو بعد اليوم العشرين... ومن يدري، قد تكون الإشاعات صحيحة إلا أن الشبح الرهيب، لم يكن إلاماراً عابراً نحو منطقة أخرى... الغابات مثلا... تلك الغابات التي تظل دائماً مصدراً لكل شر.

ثم كان... ما لا بد أن يكون. وقفز مذعوراً من فراشه مفتح العينين دفعة واحدة، يتابع العواء الحاد، يشق جوف الليل، يضرب جوف السمع على خيوط القمر المتسلل، واستمر ذلك العواء يتردد كل ليلة في مواعيده المحددة تقريباً، ينأى ويقترب، يضعف ويشتد مع اتجاه الريح. ولكنه هنا.. معي ... حولي ..في فسحة باط الخروب.

ذئبة كانت. أنثى بالتأكيد. ويا للمفاجأة عندما تحدث بوعلي يضرب في مرتفعات باط الخروب ومنخفضاته. جولة روتينية تنجزها قدماه في أي لحظة من يومه دون أن يضع لها خطة أو حساباً، ومع ذلك كانت هي اللحظة بالذات والجولة بالذات، التي كان فيها خالي الذهن من مواجهة خصمه، لشدة ما كان يفكر ويستعد لهذه المواجهة. هكذا؟ فجأة وبلا مقدمات من قبله على الأقل؟ العجيب أنها كانت ذئبة... أنثى. طلعت له أو طلع لها... والمهم..التقيا مباشرة وجهاً لوجه تقريباً، حتى لكادا أن يتعانقا! تخطو بثبات يميزها هياج لايخطئه بوعلي في إناث الذئاب..الضرع ضامر يبدو بوضوح..الذيل الطويل منسدل يكاد يلامس الأرض مستقيماً بدون انحراف، والأنف مرفوع يتشمم الهواء والفكان منفرجان ... شراسة خبث وكبرياء .... كل التفاصيل التي سمحت بها اللقطة المفاجئة التي مرت بطيئة عابرة ... وقبل أن يفيق بوعلي من ذهول المفاجأة، كانت قد مضت لسبيلها، غارت في المنحدر دون أن تغير من اتجاهها أو سرعتها ..ذئبة... أنثى ... لابد لعوائها وريحها أن يجذب الذكور، ولن يطول الأمر حتى يرتع قطيع منها في باط الخروب .. وتوضع جراء ..

ويطول الليل ويطول النهار.

غيابك يا حبيبي كية ونار

ماري ماشاف

يعود بوعلي من جلسته في مكمنه، يحتضن بندقيته. على بعد خطوات منه شاة مربوطة في حبل طويل إلى وتد تمثل طعماً شهياً. يريدها معركة واحدة حاسمة مهيأة ومدروسة. حكايات الذئاب مع الفخاخ محفوظة عن ظهر قلب. لذلك استبعد فكرة المنداف. لا يريد مغازلة عدوه، وليس هو في صيد للنزهة، فيهمه أن يظفر بالذئب حياً أو معطوباً أو... لا يهمه الدم ولا الفرو... ويحدث غالباً عندما ينطبق فكا المنداف على إحدى قوائم الذئب، أن تتبقى في موقع المعركة الرهيبة بين الفولاذ وشراسة الكائن الحي آثار من القدم... منتصف الساق أحياناً وينفلت الذئب في النهاية أسرع وهو على ثلاث منه على أربع... لا أوْهَى من عظم الساق في هيكل ذئب شرس، مع ثقل ما تحمل من هيكل، وخفة ما تسرع به.

يدب الأكلان في شفتي بو علي، ويقمع من جديد رغبته في التدخين. يمد يده في الظلام يتحسس الأرض ويرمي بحجر صغير صوب مربط الشاة التي يحس بها بقعة وحيدة بيضاء في الظلام. لا تستجيب بثغاء مغر. يعاود الكرة فلا يصدر عنها إلا تمرد صوتي مبحوح. لايهتم بوعلي لذلك ،فالذئاب تشم ريح الضحية من بعيد، وتبصره من وراء ألف حجاب.

يلح مقطع الأغنية، يلح الأكلان... تلح الخواطر.... .تصور ذئبته كامنة بين الصخور... تصورها تتسلل بخطو اللص الحاذق فتقفز على رقبة الشاة في الظلام قفزة تكون في نفس الوقت نجاتها من رصاصته الوحيدة! كأنما بالإمكان أن يفلتها بطلقته الوحيدة؟ كل شيء ممكن. تصورها بخبثها وحذقها المعروف، تخلف الموعد كما أخلفت لليال خلت؟ فينتظر حتى يبزغ نور الصبح ليقود شاته وخيبته نحو قطيعه. لم بالذات باط الخروب؟ ولم هو بالذات؟ ولم الآن عندما أصبح له من الأغنام قطيع حقيقي يحسد عليه؟

تصورها الآن ترتع في القطيع وقد انفرط عقده بفعل الرعب، تقفز من رقبة هذه إلى تلك، ومن ذاك إلى هذه، والجثث الصوفية تتساقط هنا وهناك، لايوقف المعركة إلا تدخل نصير فعال ... اقشعر كيان بوعلي لمشهد الحملان المضرجة بالدماء. لم يخبط الذئب في كل القطيع خبط مسعور ولا

يتوقف عند شاه واحدة يفترسها بأناة... ؟ وتعبر الخاطر أيام اليفاعة والصباعن معارك عدة خاضها بوعلي بخاطر الصبي مع الرجال ضد الذئاب والثعالب. لم يكن الرصاص إذ ذاك بوفرة اليوم. كانت المعارك بالهراوات والشباك... والمطاردة الجماعية. تبدأ المحاصرة بمحيط دائرة فسيح، وتتجه نحو المركز حيث تتجمع الطرائد من كل جنس، ويضيق بها الخناق... فتعمل الهراوات والشباك فعلها ولا يفلت من الحملة إلا ما أريد له أن يفلت . لم بالذات باط الخروب، ولم هو بالذات؟ لو لم تنغل القلوب بدائها لكان الكثير معه وإلى جانبه في سهرة النار هذه، لكانت الذئبة في خبر كان منذ عوائها الأول: أولاد بلعسري من هنا ثلاثة رجال... والرحاحلة من هناك خمسة... والجويدي...وولد العامرية... لو لم تنغل القلوب بدائها لكانت معركة نزهة وفرجة تقام في ختامها وليمة الأحبة على المشوي والمحمر ونشوة الشاي، والأحبة في مرح يتناصحون بفوائد دم الذئاب في إبطال السحر... وإذكاء (الهمة) في الرجال.... بينما تقبع الذئبة مسكينة مربوطة الى وتد ككلبة أليفة تنتظر مصيرها آه... لو لم تنغل القلوب....

ويقفز بوعلي من خواطره مذعوراً. بنت الكلب مرقت قرب مكمنه كالسهم وكشطت عليه التراب. نفض أطراف جلابته ولحيته في غيظ. لاشك أنها عرفت مكمنه أورأته. والشاة بقعة وحيدة بيضاء في الظلام، ألم ترها؟ كيف؟ تلعب به وتضحك عليه أم تناور قبل أن تهجم؟

لابد أن تعود. يجب أن تعود. احتضن رصاصته الوحيدة وأصبعه على الزناد.

يطول الليل، يطول....

تجاهل إلحاح الأغنية الغامض في هذه اللحظة بالذات، أسند ظهره أقصى ما يمكن إلى الجدار الترابي لمكمنه، وسدد نحو الشاة التي بدت رقعتها البيضاء تتحرك في الظلام، متبرمة بوضعها، قلقلة، محرجة... مرتعبة... متوترة... متـ... وأطلق ... وقفز بيد على سكينه الطويل تملأ خياشيمه رائحة الغبار والبارود. هل تسرع؟ جذب إليه حبل الشاة حتى

استردها، تحسسها. سليمة.مرتعشة أشد ارتعاش. هل أفلت الذئبة؟ أطلق بالذات عندما غشيت الدكنة بياض الشاة. ويجب أن تكون تلك هي اللحظة المناسبة لا بعدها. أبداً. لم يكن حسه ليخطئ ولابصره. فهل يخطئ التصويب؟ ترك الشاة لحبلها الطويل. وتحرك يجوس في الظلام بحثاً عن ضحيته. لايمكن تنأى كثيراً أو تتحمل طويلاً؟ أحس برصاصته تصيبها في الكتف أو في المرود إن لم تكن في مقتل محقق. لن تنأى أو تتحمل طويلا. ظل يجوس . يجوس.... ثم تبينها مكومة أمامه في الظلام. جثة هامدة رنا إليها فترة . توقف. أعد سكينه احتياطاً للإجهاز.. وظل يرقبها . هامدة. اقترب منها وتوقف على بعد خطوتين.. هامدة. إلا ما يمكن من تردد نفس خافت في درجة الموت. انبعثت رغبته في التدخين قوية لا تقاوم يغذيها إحساس غامر بالنشوة. مازال يجيد التسديد. ومازال يحدد المقاتل في الظلام، ولاتزال طلقته الأولى والوحيدة هي هي، كالعهد بها. سحب نفساً عميقاً عميقاً من سيجارته. وغالبه مقطع الأغنية الغريب المستعصي. ولأول مرة أطلق سراح لسانه به..

يطول الليل ويطول النهار
حبك يا خليل كيه ونار
ماشاف مارى
قلبي من قلبك
حبي من حبك
غير الفرقة واللي جرى وما جرى
واللي جرى يا حبيبي
كثير
وأنا حبي لك
كبير وكبير
واللي ما جرى
في القلب حسرة ...
...

...كأنه يحفظ الأغنية العنيدة واللحن المتردد ، لكنه لم يكن ليتمها من جوف الليل. من عمق بطن الخروب،ومن أقصاه إلى أقصاه،تجاوب العواء....

البلوري المكسور

سحابات صغيرة متقطعة تتحرك بهدوء في أرجاء سماء صاخبة، تداعبها ريح معتدلة تبدو غير منتظمة في هبوبها واتجاهها، ملامح عبوس تنتقل على أديم محيا تجلله الكآبة دون أن تنال من عمق إشراقه.... كانت تستمع لصاحبها، أو كأنها تستمع أو تتابع، بيد أنها كانت خارج ما يحيط بها، مهما تكن قريبة منه أو بعيدة عنه.. هو أيضاً كان يدرك ذلك.. أنها بعيدة عما يحيط بها.. ترى وتسمع أو تظهر أنها ترى وتسمع، لكنه كان عاجزاً عن تحديد فضائها..

أوف.. نطقتها كأنها تختم حديثاً.. نطقتها بمعالم من يتقبل أسى لا يملك له رداً.. كانت تقتلع نفسها من عالم الذكريات الأولى لارتباطهما، فترة طالت واستمرت محافظة على حرارتها، على نحو لم يعهداه في علاقات يقتلها الارتباط اليومي.. كانا معاً يتندران من شكوى الأحبة والأصدقاء، أو من نطق لسان حالهم عن تآكل العلاقات... من الملل والسأم والضجر الذي يصبح معه الثاني مثيراً للضيق... مزعجاً إلى حد لا يحتمل... يصبح الثاني مجرد آخر غريب عن معادلة العلاقة... بل أسوأ من ذلك... فالآخر والغريب

له عالم يغري بالاكتشاف... وآفة التآكل أن آياً من الطرفين لا يعود له ما يكشف للآخر، أو ما يكشفه عنده أو به أو فيه... أوف...

...كانا يخطران بين المروج في فصل ربيعي من صنعهما، كفرا شتين شفافتين... يلتحمان وينفصلان، يتدحرجان... مرحهما يشق الكون، يغري العصافير بالشقشقة والتغريد.

تساءلت إن كان ما بينهما سيهمد يوماً ما؟ نظر في عينيها ملياً، جاب صفاء عينيها... دحرجها لينقلب وضعهما أكثر من مرة دون أن يحيد بعينيه عن بحر عينيها.. أخيراً استقر بهما الوضع ملتحمين جنباً إلى جنب... ضحكا معاً... ضحكاً يغري الكون حولهما بالضحك... ضحكا من السؤال... من نفسيهما... ضحكا من أنهما في مأمن... في حصن حصين.

عندما عبرا الطريق بسرعة تحت وابل ممطر، كانت واجهة المكتبة قد عادت تغريه كما كانت تفعل من زمان، قال لها مرة وهي تسأله عن غرامه القديم بالكتب: "أنت كتابي الذي لا ينتهي...." ضحكت لقوله. تأودت بين ذراعيه، وهي تؤكد أنه إذن سوف يقرأ كل يوم طبعة جديدة منقحة ومزيدة...! ولم يزد على أنه يقرأها كل لحظة... وغابا معاً بين ثنايا السطور والكلمات... الآن.... ومنذ مدة، يبدو أنه أنهى آخر جملة من كتابه ذاك، وفقد كل قابلية للتصفح... وما يبديه من رد أو احتفاء بسؤال أو جواب منها، ليس إلا مجاملة ميتة...لا، ليست غيورة، أبداً، ليست كذلك، وليتها كانت، إذن لأنبأ ذلك عن وجود مترسب يمكن تعهده... لا... أبداً أبداً، ليست غيورة من شيء أو على شيء، ولا هي آسفة، هي بدورها فقدت قبله قليلاً، أو بعده،كل قابلية...

أوف.. ترغم نفسها على الخروج من عالم الذكريات، والعودة لما حولها بمعالم أسى لا تستطيع له رداً، كانت أبعد من أن تتهمه أوتتهم نفسها....

ماذا تستطيع هي؟ ماذا يستطيع هو؟.

حاولت أن تنظر إليه فزاغ عنها، وركز في الكأس طويلة الساق، رفيعة

الحجم، بعيدة القرار، تتماوج الألوان في بلورها متجددة متولدة بعضها من بعض، مع كل حركة أو زاوية، قال إذ ذاك وهما معاً يقلبان التحفة... إنها متجددة كحبهما، وعندما تساءلت عن الطاقم الكامل من مثيل هذه التحفة... وقبل أن يفوه البائع جاء جوابه مقاطعاً: حبنا كأس واحدة لا ثاني لها ولا مثيل...!.

كان ما يزال يشيح عنها بنظرته مركزاً في سحر البلور. أتاح لها ذلك أن تتأمله جانبياً من صفحة وجهه وعنقه. لشدما يبدو نحيفاً أكثر مما هو عليه في الواقع عندما تنظر إليه هكذا... لشدما تفقد الأشياء رواءها... كانت عندما تنظر إليه على هذا النحو تعجب بالتواءة عنقه البسيطة، فتقرأها براءة وتعلقاً وحباً... وما تلبث أن تقبلها بشبق صبياني يفاجئ وقارهما في شارع رئيسي... لشدما تتغير الدلالات... الآن، تبدو انحناءة العنق تلك اعوجاجاً عادياً بدون أية إضافة... أشياء كثيرة تفقد أبعادها السحرية.. كلمات... حركات... تعليقات وأحكام... عندما رن التلفون رفعت السماعة كان هو وراء الخط، وراء البحر... مجنون.. مجنون... أكدت له ذلك مصعوقة بما تسمع. قال لها إنه في أجمل عاصمة في العالم، كل بقعة فيها تتحدى الأخرى فتنه وسحراً... فيض من ألوان الطبيعة، وبشر الناس فوق ما تسمح به عدالة التوزيع على الأرض،... أشياء كثيرة من افتنان وغاية ابتهاج وحمق... لكنه عبر على ما هو أكثر من ذلك فهو يصرخ في سمعها من وراء الخط: إنه راجع إليها... الآن... على أول طائرة يحرقه الشوق إليها... لا يطيق... لم يعد يطيق ولن.. مجنون... مجنون... قالت ذلك في نفسها وهي تستمع إليه مشدوهة. لم تكن تتصور أنه مجنون إلى هذا الحد وصاحب مزاج... ويحبها إلى هذا الحد... مجنون... مجنون... قالت له كيف يحصل هذا منه ولم يفترقا أكثر من يومين وهو في بداية مهمته هناك..؟ مهمة لن تتجاوز بضعة أيام... كيف؟ لاشك أنه يبالغ في المزاح رغم أنه يحبها وهي تبادله ذلك...

كان قد مضى على زواجهما قرابة سنتين... وما يزال حبهما بألوانه

يزدهي ويتـوهج... لكن ذلك لن يبلغ أن يفكر هكذا بجنون أهوج، في أن يترك مهمته القصيرة المدى، ليعود إليها بمبرر الشوق... مجنون.... مجنون.... يمزح... ما أحلى مزاح الجنون وجنون المزاح... لكنه أخرسها عندما أكد أنها ستظل تأخذ كلامه على سبيل المزاح، حتى تجده بجانبها الليلة على أول طائرة... وعلى أي خط مهما التوى وتعرج! قال إن سحر أجمل عاصمة في العالم، وصخبها الليلي، يغريه بالعودة، لأنه لا يستطيع أن يكون مجرد شاهد عليه، ولا يستطيع أن يجدها بجانبه لتشاركه، وألف «بزعط» على مهمته، «واللي بغا يربح، العام طويل...»... وهو قادم الآن.... في الحين.... وحالاً، على أول طائرة على أي خط طال أو قصر!.

أحست به يهم أن يقطع المكالمة... دعته للتمهل. اشتمت في لهجته ريح القصد والجد.. أية مهزلة هذه؟ ولم تعهده أهوج ولا متهوراً. هل يكون شيء آخر وراء فكرته الصبيانية هذه؟ أحست به يوشك أن ينزعج من تشككها، قال إنها ستفسد عليه نشوته التي يريد أن يحياها حتى الثمالة. تساءل باستنكار كوني، أي أحمق أخرق هذا الذي أحل في الأذهان أن الغرام المشتعل لا يلتهب بين زوجين، أو لا يظل ملتهباً، وأحمق، وكل طائش؟! أنجدها الخيال إذ ذاك... تأكدت من صبيانيته الجادة، فاستنجدت بالخيال، قالت له إن عليه أن يثبت حيث هو ويبقى في مكانه، وستطير هي إليه! أنصت برهة، بدالها وكأنه مشدوه لغفلته عن هذا الحل... ظل الخط صامتاً بينهما... كل منهما وكأنه يقرأ أفكاره وأفكار صاحبه عن بعد، وعبر الخط الصامت، كان ما بينهما أبعد من أن يجعله يظن أنها تجامله لمجرد أن يستمر في مهمته... وكان ما سمعت منه أكثر من أن يجعلها تفكر بأنه يمكن أن يقضي لحظة واحدة على غير أمل باللقاء العاجل... وكأن جذوة الحب بينهما تزيد اتقاداً على لهيب الصمت، ليقول لها في جملة واحدة، إنه منذ الآن، يحجز لسهرتهما في أفخم ملهى. آه ما أشهى الحب طفلاً! رفعت إليه نظرة مستطلعة بدون حرارة، كان غائباً كما قدرت، نظرته تحوم حول الكأس البلورية. تحركت نحو الرف، أولته ظهرها بحيث تحول بينه وبين

الكأس، حدقت في التحفة الناطقة بعبير الماضي، الصامتة الحاضر... مازال التداخل العميق متجدداً في ألوان البلور، حملت إليها الكأس وبدأت تحركها... التفتت إلى صاحبها وهي تدير الكأس من منتصف الساق الطويلة، لم يكن لديها شك في أنه يتابع حركاتها... يتابع حركة الكأس بين أناملها، وتمازج الألوان في تفاعلها المتجدد مع كل حركة... سألته إن كان ينوي السفر حقاً... لم يجب. قدرت أنه قد يفهم استفسارها على أنه يخفي رغبة في رفقته. ولم لا؟ فاجأت نفسها تتساءل لمجرد أنها لا تريد أن تستسلم. إنهامعركة حقيقية. لم لا؟ لم لا ترافقه وتعمل على إنعاش ما يجب إنعاشه؟... لم لا تغذي الجذوة الخابية؟ ومع ذلك، عندما رفعت عينيها إليه دون أن تتوقف أناملها عن تحريك الألوان البلورية المتجددة لم تزد على أن تخبره أن تساؤلها هو لمجرد العلم، ولمجرد أنها قد تتغيب أيضاً في زيارة ما! أشعل سيجارة. لم تعد كما كانت بالنسبة إليه... كما كان يقول لها... إنها سيجارته وكأسه... أحست به يمتص الدخان بعنف زائد. حركة لو صدرت عنه في عبق الماضي، لاعتبرتها مغامرة خطيرة على صحته... هنائه... حبها وحبه... كيف تفقد الأشياء رواءها؟!... هكذا وببساطة كاملة يتحدى التغير حبهما كما يتحدى كل شيء. قاعدة شاملة بلا استثناء: ما أتعس الحب راشداً متعقلاً! الآن تمضي اللحظات طوالا... طوالا بينهما. يقضيان الساعات على انفراد، تفصلهما على القرب عوالم بلانهايات ولا حدود.

كان قد أنهى سيجارته وانغمس في كتاب، جلسته لا توحي بأي استغراق، بعد قليل سيلقي سؤالا بارداً عن موعد الأكل، دون أن يتابع الجواب، تدرك ذلك من غياب نظرته عنها وهي تجيب، أحياناً تتوقف في نصف الجواب، فلا يعير ذلك اهتماماً، ثم ما يلبث بعد لحظة أن يعيد نفس السؤال أو سؤالاً مشابهاً... لعبة ممجوجة. ويبدو أنه فقد كل إحساس ببرودة الوجود حوله، غريق لا يخشى البلل. ماذا تستطيع له أو يستطيع لها؟ الجليد بينهما سميك يغمر كل شيء... كلمات هامدة. إشارات بلا دلالة، صمت بلا بعد، بلا ثنية بلا ظل ولا رمز، ماذا يستطيعان؟.

نافحت من جانبها لتبعث الحياة في الصقيع. أحست بأنها تبذل جهداً خارقاً فيما كانت تأتيه عفواً، ببساطة متناهية وبلا أدنى شعور... مع ذلك، أصرت على أن تبعث الحياة في الموات، في الهمود... استماتت وأحست به مثلها يستميت، معركة حقيقية يخوضها كل منهما بنفسه لنفسه وضد نفسه، جهودهما كانت في نفس الاتجاه، تتسابق في نفس التيار، والنتيجة؟ لا أكثر من تسابق ميت للمجاملات، للضحكات المفتعلة، لنكات يموت صداها في جوف الحلق... النتيجة؟ لعلهما أدركا أن سعادتهما تلك التي كانت، لم تكن في الأغلب ناشئة اللهيب والاحتراق، عن توترين متحدين في نفس الاتجاه، بل عن توهج خطين متنافرين... خصوبة التوهج وحيويته، كانت بحيث يمعن كل منهما في الاحتراق دون أن يعبأ بالآخر، لا لإهمال أو أنانية، بل لأنه كان يدرك دون جهد أو حتى إرادة... أن الآخر مثله يحترق.... وأن فيض التوهج منهما، حولهما، بحيث يحرق الكون كله ولا ينطفئ أو يخمد....!.

النتيجة؟ فاجأت نفسها أكثر من مرة تقاوم ابتسامة مريرة من جهودها المستميتة ليتوهج الرماد.. قرأت في عينيه مثل ذلك... أكثر من مرة... لماذا ينسج الصمت ثقيلاً خيوطه كلما تأكدت من رحابة العبارة وانفساح الحدث؟ لم يُغتال المحتمل والمرتجى بحسم اليقين والمؤكد؟ كيف، بأي حق نغتال بحسم التواكل مغامرة ومقامرة ومناورة؟.

استجمعت شجاعتها، رفعت عينيها إليه في عزيمة من يرتمي من حالق.

زاغ عنها بنظرته، كأنه يرفض المشروع، وما مشروعه هو؟ هل تبقى له شيء أو محاولة؟ حطت نظرتها مرة أخرى على الكأس البلورية، متجددة الألوان والأعماق، طويلة الذكرى، طويلة الساق... امتدت يد منها ترفع إليها التحفة الفريدة الذكرى، تستقي منها الحرارة واللهيب، تستعير منها الاحتراق والتوهج الذي كان... حين شهقت أناملها بصفقة باب...

لحم وتراب

من بعيد ، يتناهى الأزيز واهنًا متصلا يتقوى حتى يصل ذروته الحادة في السمع ، فينفلت متصلاً متواهياً ، وقبل أن يغيب يتضاعف مثيله ... هكذا دون انقطاع ... هكذا وأكثر ...

من قريب ، تتداخل أنماط الأزيز ، ودرجات القوة والتماهي والانحدار ، تغيب حدة الذروات في ذروة مستمرة بغير انقطاع ، تضم من الأزيز ثخينًا ومصمتًا ورفيعًا ومبحوحًا ...

تطرف العين مع كل زفة ، هبة تطير على الطريق السيار .. تطرف العين ، تعجز حركاتها عن أن تكون تعداداً للسيارات العابرة الطائرة على الطريق ... تعجز عن أن تطرف لكل هبة ، أو تلتفت متابعة كلا المسارين المتعاكسين من اليمين والشمال ، على الجادتين الفسيحتين المتوازيتين المفصولتين ... تعجز عن تمييز الحجم واللون .... قطع تَتْرى متدحرجة بسرعة البرق ، يتلو بعضها بعضًا ، يسابق بعضها بعضًا ، يركب بعضها البعض!

تزكم الأنف رائحة الاحتراق النفاذ ، تجد النفس في غرابته جذبًا يستحق أن يستنشق مثيراً مستفزاً لشعيرات الأنف ... نفحات متتابعة

مستطلعة ... تجاهد النفس وهي تنشق احتراق المحتكات على المضمار السيار، لتبين سره وطبيعته ... تتابع ذلك مدة .. ثم تتركه.

من بعيد، يبدو المضماران المتوازيان المفصولان مصدر الأزيز والزفيف خطين رفيعين لا نهائيين هادئين، تتحرك بجنون على أديمهما المسود نقط بلا ملامح.

من قريب ... من أقرب، تذوب النفس في الأزيز والزفيف، تغيب في ريح الاحتراق والاحتكاك، تتلاشى النقط العابرة السائرة الطائرة .. تتلاشى الهبة والزفة والهزة .. ويتركز الوجود على فسحة مابين المضمارين المتوازيين المتعاكسي الحركة ... فسحة رطبة ظليلة هادئة مزهرة، تنعش قلباً صادياً، تروي ضلعاً يابساً، تنقع ضرعًا جافًا...

ترمق عين بوحميد ذلك كله، تركز عيناه على البقعة الوحيدة المزدهرة الحية في هذا الكون، بقعة العشب والزهر في فسحة مابين المضمارين المتوازيين المتعاكسي الحركة ... ملكوت محروس بقوة لاتقبل اختراقًا، لاتتيحه ولاتسمح به.

ترجع عين بوحميد إلى حركة المضمارين .. كالسهام متتابعة، تمرق السيارات، والأزيز يغزو الكيان والزفيف، حتى العظم .. الرهان ... رهان الدقة والسرعة والحذق والمهارة ... مَن أمهر مِن بوحميد في النفاذ بين هذه السهام، يسوق أربعة قرون لثورين هائلين يتحركان بإرادته ووفق إيقاعه؟ يسوق ؟ الأولى أنه يمسك ويتحكم بقبضة لايعرفها غيره ... لا يعرف سرها .. وهو ليس سراً مشاعًا رغم أن الكثير يعتقدون أنهم يعرفون ذلك ويتقنونه. صحيح أنك إذا كنت في مرعى أو فضاء، تستطيع أن تجعل ذا القرنين ينصاع لإرادتك بدفعه أمامك بقبضة يعرفها الجميع .... لكنك لاتستطيع أن تجعل ذا القرنين يسير في خط مستقيم فقبضتك تجعله بين الفينة والأخرى، يتمرد على استقامة السير أو على توجيهك له، فينحرف بقوة إلى هذا الاتجاه أو ذاك، وتصبح له تابعًا قبل أن ينصاع لك من جديد، ليعاود الكرة. وهكذا يصبح المشهد كله مثيراً للضحك في نفس بوحميد، أن

ترى رجلا يقوده في الواقع ذو القرنين أو يتبادل التبعية والقيادة معه على الأقل!

بالنسبة لبوحميد الأمر مضحك، وسره خاف على الكثير من المدّعين: ما الذي يجعل ذا القرنين يتمرد فترة بعد أخرى أثناء السير بفعل الأثر القوي لمسكة اليد على الذيل بالطريقة المعروفة؟ الأدعياء لايعرفون السبب، ويعتقدون أنها طبيعة في ذي القرنين! لا. التمرد والانحراف يأتي من التعب والألم، ومن الضيق الذي يشعر به ذو القرنين من المسكة الرتيبة اللاوية العاصرة لذيله ... وكلما تقوى إحساسه بذلك، عمل على التخفيف عن نفسه بالانحراف عن خط السير أو الاهتياج في الخطوات ... وكل حركة منه تخرج عن الرتابة المؤلمة التي يريد القائد أن يسير بها وفيها، تجعله يرتاح أكثر، وكلما حصل على فترة ارتياح بهذه الحركات كلما زاد استعماله لها، أي أن ذا القرنين ليس خلواً من حس الذكاء، حس الراحة والألم. وليس حس القيادة المتبادلة هو الذي يغريه بهذه الحركات غير المفهومة في الظاهر، والتي يرجعها «العارفون» إلى طبيعة في ذي القرنين.

السر يكمن إذن في أن تجعل ذا القرنين لايجرؤ على الحركة المتمردة على إرادتك، لمجرد أنها تزيد من ألمه ... هكذا ينصاع ويختار الوضع الأكثر راحة أو الأقل ألمًا، فهما سيان، وهما ماتصنعه قبضة بوحميد التي تلوي وتدفع الذيل كقضيب صلب في عمود ظهر ذي القرنين، وتعرف بالذات كيف تتحسس مراوغاته لتجعل اللّي والدفع يحافظان على وتيرتهما ... بل يزدادان بمراوغة ومناورة ذي القرنين ... أكثر من ذلك ... إذا كنت في فضاء فسيح أو حتى في طريق مكتظ بالمارة كما يحدث في الأسواق، فإن تمرد ذي القرنين على إرادتك لن يثمر أكثر من صدام بعض المارة وإفساد بعض المتاع. ثم إن الناس يخففون من هذه الآثار بتهربهم وهروبهم من طريق ثور هائج .. وفي أسوإ الأحوال لن يفعلوا أكثر من سباب وشتم يصبونه على الرأسين معا، القائد والمقود ... أما أن تمرق بما تقود من بين سهام سيارات طائرة، وتقطع به عرض المضمار بالسرعة التي تختار

والاتجاه الذي تختار .. حتى تجعله يرتاح وترتاح في فسحة مابين المضمارين، فهذا رهان كبير .... هو الرهان الكبير حقاً .. والأكبر منه أن تمرق بثورين أقرنين تتحكم في ذيل كل منهما بإحدى يديك .. وتنجز ذلك بالسرعة والإتقان المطلوب، فهذا رهان أكبر ... أكبر ...

أنهى بوحميد جولته وبدأ ينحرف مبتعداً عن السياج في طريق عودته إلى الدوار .. جولة عادية ينجز مثيلات لها طول يومه نهاراً، كأنه قائد يتفقد مواقع جنوده قبل المعركة الليلية، وفي أحيان كثيرة، كان يتمدد في أي ظل أو شبه ظل بجوار السياج الحاجز، وينام ساعات من نهاره .. مادام نهاره فارغًا .. مادام يقضيه في انتظار الليل..

الليل ليس بعيداً ولاقريبًا، لاقصيراً ولاطويلاً .. إنه قائم مقيم في الصدر، في السمع والبصر، في اليقظة والمنام .. زفة، هبة، إشعاع... تقول له إنها لا تهدأ حتى تشتم ريح عودته في الغبش... لاتدري بأية حاسة تنهاه. لاتدري كيف تنهاه. هي أعلم بالحال .. وأعلم بما سيقول وتقول، لكنها لا تهدأ أبداً ولاتعرف ليل النساء والأمهات ... يضحك في سره ويبتسم. الخوف من الله وحده. والخوف الحقيقي من بني آدم .. من عيون الحسد وعيون الحرس والدرك .. والباقي، الخوف من الله .. الأمان من الله ... يضحك في سره ... يتناول ماتيسر من قوته بجانبها، وعينه ترنو راضية مرضية إلى هيكل ذي القرنين يغفو مكتنزاً مطمئنًا .. يرنو بعين الرضى ويغفو بدوره لبعض الوقت .. تتراقص الأضواء .. تمرق عابرة طائرة على الإسفلت الأملس السيار .. دائبة لاتفتر ولاتهدأ .. تبدو للعين من بعيد بقعاً تتابع سابحة في خطين متوازيين على القرب، تتسارع بقع الضوء على الإسفلت أزيزاً وزفيفاً ماتكاد تضيء أو تضاء، حتى تمضي مخلفة دفعة أزيز ماتكاد تتواهى حتى تدركها أخرى..

برهة تطول أو تقصر .. لايهم، المهم اللحظة المواتية والحضور.. أن تكون جاهزاً في اللحظة التي لا تقدر مابين دفقة ودفقة .. ما بين إضاءة وأخرى .. اللحظة يخلقها حضورك المتحفز، تخلق منها الطول والقصر، ما

الطول وما القصر في لحظة لايهم فيها إلا أن تَعْبُرَ المضمار .. هذه الخطوات المعدودة التي لايعبأ بعدها أحد؟

يستكين ذو القرنين بدوره في انتظار اللحظة .. تستكين أربعة قرون في انتظار اللحظة .. متوثبة مثل بوحميد .. يحس بها وتحس به في الظلام. أليست عشرة؟ أليست ترويضاً؟ أليست مصيراً؟

الخاطر يسري من بوحميد إلى ذي القرنين من عصب إلى عصب... يتركز في يد تمسك الذيل وفي صوت يصدر الأمر ... وفي خطو يسابق اللحظة، يجاريها عندما تحين .. عندما تصدق الموعد. لاقبل ذلك ولابعده ... وهي لم تأت بعد، قد تكون قريبة، هي قريبة على كل حال حتى ولو بعدت، وبكم تبعد؟ لم تأت بعد، وهي دائمًا قريبة، المهم الحضور .. الحضور. الآن! تسري عزيمة الأمر من عصب اليد إلى عصب الذيل ليّاً ودفعاً وتوجيهاً .. تسري الطواعية والانصياع في كيان ذوي القرنين فينهبان الخطوات المعدودة المحدودة اللانهائية باستقامة لاتقدر .. ومع تنهيدة الفرج يطلق بوحميد يديه، ويترك لثوريه الراحة .. يعرف أنهما يعرفان كيف لايحيدان عن القصد. القصد أن يمرحا في عشب الفراغ المحدود بين المضمارين، ألا يضيعا وقتًا، أن يرعيا ويتزودا شبعًا .. ألا يرتاحا من الرعي .. أن يغوصا بقدر الإمكان في الحفر والمنحدرات، أن يرعيا منبطحين لو أمكن كالزواحف أو كما يزحف الجنود ... ألاّ يصدرا صوتًا .. ألاّ يعكس ضوءاً... ألاّ يسمعا أو ينتبها لغير أمره ... ألاّ ... ألاّ..

عجيبَة هي اللحظة التي انتظرها وعندما حلت لم يشعر بشيء غير حضوره وعزيمته! هل حضرت اللحظة فعلاً أم أنه هو الذي قدر وتصرف؟ تقول له إنها كل ليلة يخفق قلبها خفقتين يكاد بهما يقفز من بين ضلوعها أو يخرس إلى الأبد .. إحداهما قد تكون لحظة العبور الأولى، والثانية لحظة العودة، وبينهما خوف وقلق وتوجس .. ماذا يقول لها؟ الخوف من الله يافاطمة... الأمان من الله. الخوف من عين الحسود.

في موقع مابين المضمارين السيارين، يتوزع السمع والبصر والشم

بين الأزيز والدفقات وشياط الاحتراق .. يتوزع الترقب ذاته مابين مضمارين واتجاهين، عله يستشعر علامة خطر لينجو بنفسه على الأقل مؤقتًا .. وإن كان لايتصور يومًا أنه يستطيع أن يفعل ذلك لو أراد. إذ كيف يترك ذا القرنين وينجو .. ولمن ينجو وبم ولم ؟! ..

تمرق الأضواء متوازية على اليمين والشمال، مرسلة أطراف أشعتها على جوانب البقعة المعشوشبة حيث يرتع الثوران قرب بوحميد المستريح إلى موقعه وأفكاره. شتات النور المارق يخطف البصر من بوحميد فيدعوه إلى أن يغمض عينيه، وحينئذ يخطف الأزيز أفكاره من رأسه، لكنه بكل ذلك مرتاح ومستريح ... نفس الثورين يتردد على القرب مؤنسًا خواطر بوحميد، وباعثًا فيها حيوية ودفئًا.

تقول له إنها لاتنام حتى يحضر، وعندما يشتد قارس برد «الليالي» وهي تحت الدفء، تقارن حالها بحال بوحميد السامر تحت «السمرة» والمطر، مسلحًا بقطعة خيش ثخين على الرأس والكتفين، مغلفة الظاهر بقطعة رقيقة من بلاستيك شفاف ... ويرتادها عليه خوف مقيم من البشر والطبيعة ... لا يافاطمة. لاخوف، الأمان من الله . الخوف من عين الحسود عندما تشهق محدقة في اكتناز ذي القرنين، واستدارة هيكلة: من أين؟ تتساءل في السر والعلن تلك العيون: من أين لبوحميد هذا المرعى وكيف؟ بعضهم من شدة الحسد الفاضح يتقدم مباشرة ينصحك بألا تبيعه بأقل من ...!؟ كأنك طلبت من فضوله الحسود أن ينجدك بالتقويم .. كأنك تمد يدك لتقبض الثمن!

لا. لا يافاطمة، لاخوف .. والخوف من الحرس ومن الدراجات الدركية النارية، المرعبة البهيجة، والتي تزداد بالليل بهجة بأضوائها المتراقصة الملونة ... وهي تمرق بهذا المضمار أو ذاك .. عليه أن يترقب مرورها تحسبًا، وأن يعود سليمًا من شرها ...

يحس الآن أن ثوريه قد بلغا القصد؛ فوقْع البرد القارس في عظمه يعلمه بذلك، وحركة الغيوم والنجوم في فضائها الفسيح.

تتراقص الأضواء .. حركة مارقة عابرة طائرة على الإسفلت الأملس لاتفتر ولاتهدأ .. البرهة تطول. لايهم .. المهم الحضور عندما تحضر اللحظة .. قلبها الآن يخفق خفقته الثانية ... لاخوف. المهم الحضور الكامل عندما تحضر اللحظة. أربعة قرون تستسكين بين قبضتي بوحميد في انتظار اللحظة متوثبة تحس بعزيمته ويحس بها. أليست عشرة؟ أليست مصيرا؟ الخواطر، العزيمة، القصد .. كلها تسري من عصب إلى عصب في انتظار اللحظة ... بعد لحظة .. بعد بقعة لونية مارقة .. بعد أزة .. بعد هبة .. بعد خفقة .. خفقتين .. الآن ... الآن .. لاقبل ولابعد .. الآن. وينفجر الكونُ بركانَ ألوان متراقصة باردة كالثلج تغشى البصر .. عاصفة تلف كالإعصار .. فحيح حاد، وارتطام وثقل مهول يهوي يهوي بالسماء .. يجر السمع ،، يجر النبض ... يجر الخوف .. والأمان ...

اشراقة

تتداخل الكلمات، تتقارب السطور يعلو بعضها بعضاً، يدخل بعضها فوق بعض.. تتراخى الأنامل، تتثاقل مفاصل الذراعين، تسقط اليدان على الركبتين، تنزلق الجريدة مفتحة الصفحات لترسو عند قدمي الكرسي...

هكذا تأخذه الغفوة بين الحين والآخر.. فتلتوي عنقه حتى يفاجئ نفسه يوشك أن يشخر، إن لم يكن قد شخر كثيراً بالفعل، فيستفيق.. أعوذ بالله... يتلمظ، يمسح بكفه المعروقة رأسه الأشيب، قليل الشعر، يحك ذقناً سيئة الحلاقة محاولاً أن يتذكر ماذا كان يفعل قبل الغفوة القصيرة في تقديره، بالفعل يتذكر الجريدة، يبحث عنها، يجدها دائماً في مثل هذه الحال عند قدم الكرسي، وبالذات عند هذه القدم القصيرة التي تجعل الكرسي دائما متحركاً، كلما تحرك صاحبه...دائماً.. هذا مسقطها إلا إذا هبت ريح فتبعدها عن هذا الموقع... يستطيع الآن أن يفكر بأن الطقس لم يتغير أثناء غفوته القصيرة...والجريدة في مسقطها المعتاد، حتى صفحاتها المفتحة بغير انتظام بعد انزلاقها من بين يديه على صدره وركبته، لم تتعد مسافة امتداد يده إليها وهي على الأرض، فالجو راكد...

الجو راكد .. وكل شيء راكد حوله. في مثل هذه الساعة تخلو الدار الكبيرة من الحركة.... خارجُ الدار يلتهم كل شيء تقريباً في مثل هذه الساعة من منتصف الظهيرة، مابين العصر والمغرب. الأحفاد من صغار وكبار يغيبون في المدارس، والأبناء يتيهون كل في سبيل مختلف، يعود بهم آخرُ النهار في أشد التعب أو في تعب مبالغ فيه، يكفي لتبرير انصراف كل منهم إلي غرفته يخلو بزوجته وأولاده... لايبقى إلا النساء أو بعضهن على الأصح... فأغلب زوجات الأبناء ممن يلتهمهن خارجُ الدار كالرجال سواء بسواء، مما يكون أكثر تبريراً لمظاهر تعبهن الزائدة، ولخلوهن إلى أزواجهن... ويكتفي الجميع حين العودة.. عودة أي منهم أو منهن... برمي تحية من بعيد، أو لمسة باردة أو إشارة إلي موقع الكرسي... يتفضل أحدهم فيقترب أكثر، ويتودد أكثر، إذا كانت زوجته لم تعد بعد، أو لم تفرغ له أو لم تُشر...فيلتقط صفحات الجريدة المترامية حول موقع الكرسي، ويعيدها إليه، متسائلاً عن الحال... كيف هي؟

الحال... وكيف يجب أن تكون؟ وكيف يمكن الجواب عن هذا السؤال العام؟ الشمس اليوم قوية... أو هي ليست حارة جداً... يعني.. محتملة.لاداعي لتحويل المجلس الآن.. وقد آن الأوان لدخول الغرفة...غداً...غداً يحول موقع الكرسي. طبعاً، بعد حصة المشي.. إحداهن... زوجة...زوجة... أحدهم، ليس لها ماتستعجل من أجله فيما يبدو، ربما لأن زوجها سيتأخر؟ أو... لتمضي وقت انتظاره.. تتلهى بعض الوقت حتى يأتي.. ويأتي صغارها... تقبل على الحاج، تناديه بصوت هادئ واطئ حتى يفيق من غفوته، تحييه مبتسمة تسأله عن الحال... عن الصحة كلها، السعلة.. والحرقة، والشهية والبولة، لاحياء في الدين... وابتسامتها تتسع فتتسع رقعة زينتها على الوجه...طبعا يجيب. كل شيء بخير... وهذا صحيح. فهو لايشكو من شيء بالضبط. لا من الصدر، ولا من الظهر ولاحتى من وسطهما.. مازال يشعر بالحيوية... كل الحيوية... أحياناً تعاوده حيوية الشباب في الحركة والخيال.. فيردعها لكنه لايخفي عن نفسه استمتاعه بهذا

الشعور، وكم يتمنى أن يدوم... لكن لاشيء يدوم حتى الاهتمام المعارض لزوجة الابن هذه... زوجة... زوجة... المهم اسمها... اسمها... لاعلينا، لاشيء يدوم. وها هي ذي بعد تحية ومجاملة لم يشعر فيهما بصدق و قد قدر أنها تنتظر شيئاً، تمضي به الوقت... بالفعل يعلو هرج نسوي وتقوم المرأة دون أن تودع، تستقبل مدعواتها من الصديقات والحبيبات.. يجررن أذيالهن، ويرفعن عن سيقان مكتنزة بضة ناعمة فاجرة... في هذه السن وحدها، يستطيع الإنسان أن يحكم على الأشياء حكماً محايداً بلا حرارة ولاانفعال، فتبدو سخافة اتفاقيات الوجود...

زينة الحياة الدنيا الأولاد، النساء، المال والملك كلها تبدو الأشد سخافة.. لولا بقية تردد في النفس.. لولا لَمَع وسط الزحام والركام... الطفلة الصغيرة لبنى أو لدنى أو لسنى.. المهم أنها تتحكك على أطراف المقعد... تتمسح ببابا الحاج ...تصطنع له لُكْنَة يعشقها.. تصوغ له عقداً من كلمات يستظرفها ...حتى يدخل يده في جيب سترته ويخرجها بأنواع من حلويات أو دراهم.. يحب هذه الطفلة، يحب نفاقها الصادق...

فترة كأنها ليست من كون هذه الدار... فترة تغيب فيها النساء المتبقيات وراء الأبواب بالغرف..لأول مرة تتاح.. أو على الأصح لأول فترة طويلة في العمر مهما قصرت، يستطيع رجل أن يدرك طول ماتقتضيه في غرفتها امرأة بدون فعل أي شيء، أو بانشغال بشيء سخيف مهما يكن. إذ ما تفعل احداهن ممن لايلتهمهن خارجَ الدار في الشغل المنتظم؟ تتزين؟ .. تنام؟... تنسج؟.. تتردد حينا بعد حين مابين الغرف والحاج، ترمق موقعه على الكرسي ينتقل موقعه طول اليوم من الظل إلى الشمس، ومن الشمس إلى الظل؟ بماذا تفكر عندما تطيل إليه النظر، إلي هذا الهيكل الذي مايزال يشعر بالنشاط...بابا الحاج؟ هو أدرى من غيره بأن فاقد الشيء لايتصوره، فأحرى أن يعطيه. هل تتصور إحداهن الآن، هن زوجات الأبناء أن منهن من يمكن أن تصل إلى مثل هذا المقعد المتحول من ظل إلى شمس، ومن شمس إلى ظل؟ هل يمكن لشباب أبنائه أن يتصور ذلك لنفسه؟ بابا الحاج نفسه

عندما كان في سن الشاب لم يكن يتصور هذه الفترة بفراغها ووحشتها، رغم ماكان يراه أمامه من حالات.. لم يكن يستطيع أن يتصور... وكيف؟

عندما يتناهى نزاع الأزواج من أبنائه من وراء الأبواب، وشهقات المرح ونوبات الخصام وموجات الصلح الحار... تتعاظم فيه الوحشة... عندما ينسل الجميع مثنى مثنى.. بعد كل وجبة..وبعد العشاء... آخ... من صلحه وخصامه مع الحاجة، الله يرحمها... الصلح... كانا يسميانه الملح... ملح العشرة... حلاوة الصلح... حلاوة الخصام.. اخخ من الدنيا... تذكُر دائماً، الله يرحمها، بعد كل صلح، بعد كل خصام بأنه هوهو، بطبعه الحلو المتميز "الحار" الله يحفظه ويخليه لأم أولاده، هو هو، كما عرفته منذ أول يوم اقتلعها، وقد جاءت يانعة إلى مكتب تحصيل الضرائب، إلى مكتبه بالذات لتؤدي ماتخلد بذمة أبيها... فحصل منها المبلغ، وتحصلت إليه بذاتها من نظرته الأولى إليها... من خطوته الأولى وراءها... منذ أول يوم والحمد لله رب العالمين...

الشيطان الأصغر يأتي كالزوبعة، الحفيد الأصغر، يلج الدار بضوضائه، يرمي المحفظة حيثما اتفق ويختطف الجريدة من بابا الحاج بمطلق الطيش يقرأ بصوت مسموع وأخطاءالنطق والإملاء صفحة السينما ثم يرمي الجريدة شاتماً... قديمة... ويلعن (أبوها)... شيطان، زوبعة حلوة، وعديم التربية، وماأحلى طيشه على قلب بابا الحاج! قديمة.. صحيح قديمة، ولكنها تمضي الوقت.. جريدة الأسبوع، يقرأها ويعيد، وكلما أتى على آخر عمود فيها، وواتته الفرصة ليتساءل عما قرأ، أعاد العمود مرة أخرى، وانتقل إلى غيره... عجيبة هي جرائد اليوم، ملساء تماما، كمضغ الماء... والراديو أفضل لولا أن الوقت طويل ثقيل... وماذا يمنع من أن يقضي أياما في ثنايا جريدة تبدأ وتعيد، تغفو وتفيق من ظل لشمس ومن شمس لظل؟ وما الداعي لتجديد النسخة إذا لم يقطعها طيش ريح، أو نزق شيطان صغير... قديمة قديمة؟!

حين استرد وعيه من غفوته القصيرة، وأحس بألم العنق، أدرك أن

النوم قد سرقه قليلاً في جلسة الكرسي، وهذا الظل يغطيه أو يكاد بعد أن كان في مجلس الشمس... عجيب... عجيب حقا، جداً... وتلمظ مراراً... عجيب... طعم القهوة بحبها المجروش الطافي على سطح الكأس القصيرة الزجاجية، وهو يمضعها بتؤدة بين أضراسه بعد كل رشفة.. عجيب... طعم ونكهة حية مختلطة بأصوات الباعة قرب الساتيام، وحركة المرور النشيطة حول المكان... طعم الجلسة والصحبة يطغى حاراً دافقاً يمثل في الذوق والشم والقلب والرأس... عجيب... كأنه عائد لساعته من جلسة المقهى تلك، بعد يومه في مكتب تحصيل الضرائب كما كانت العادة... لا.... لا الطعم أقوى ولا النكهة أنفذ. يتلمظها وما يزال يجدها في اللسان، وبين الأضراس، وفي الدماغ كأنه جالس اللحظة في مجلس المقهى ذاك، منذ عشرين... ثلاثين سنة... أربعين... طعم القهوة، نكهتها، نكهة محماد وهو يضعها على الطاولة، وهو يرحب ويأخذ الثمن ويشكو، بما يخالط نطقه من سوسية محببة... نكهة رفيق العمر صديق الدهر... مولاي الطيب آه.. ياللعمر... يدرك الآن أن النوم قد سرقه وأنه رأى في الحلم مارأى... استعاد ما استعاد، ماأحلى... ماأجمل ... آه.... مولاي الطيب ياللعمر... تلمظ مراراً يستعيد الطعم والنكهة والجريدة نفسها، يوم كانت الجرائد جرائد وبنت ساعتها... تتركها بعد الجلسة مباشرة، بعدما أفرغتها من محتواها بنظرة، واستوعبت... قديمة... قديمة القديمة أمك... ماأحلى زوبعة الشيطان الصغير! آه . عجيب، مولاي الطيب. مولاي الطيب.. منذ متى وكيف لم يسأل عنه؟... ولم يسأل الآخر عنه؟! عجيب جداً وحقاً.

أحس بدبيب الذكرى والحياة يبعث دفقاً في الكيان الواهن... أيام المقهى ومولاي الطيب كانت مرحلة... ونادي الفريق... وكدية الشاطئ... كلها كانت مراحل ومحطات مع مولاي الطيب والأقراب... دفق الذكرى والحياة يدعوه إلى النهوض، الى التحرك والخطو، بتؤدة وعزم على أوراق الجريدة القديمة... قديمة... قديمة حقاً وصدقاً.

أدار قرص الهاتف... رقماً أو رقمين، ثم توقف.. تذكر، أدار رقمين

وتوقف من جديد .. لايمكن أن ينسى رقم مولاي الطيب بالذات رغم الأيام الطويلة.. السنوات! كان الرقم مرتبطاً بشيء ما، يسهل حفظه وإدارته.. كان في الواقع يحفظه بأصابعه على القرص ولايدير به لسانه أبداً... كان إذا سئل عن ذلك الرقم يتريث ولايعرف الجواب بلسانه، لكنه بسرعة يتخيل أنه يدير القرص، أو يكتب، فيحضر الرقم بكامل تفاصيله... الآن يستعصي الرقم على الأصابع وعلى القرص معاً... وفي كل مرة يدير رقمين ويتوقف... آخ... أخيراً تلين الأصابع ويدور القرص، وتمضي اللحظات مليئة بالتحفز.. يرن ومايزال الجرس في سمع الرجل... ينتظر كَالمرتعد المرتعش... ابتسامة مسبقة مرتسمة المعالم والحدود في انتظار لحظة الانطلاق. مايزال الجرس يرن ويوشك الرجل أن ييأس حين ترتفع السماعة من؟ أنا؟ الله أكبر. السلام. أين نحن؟ كيف؟ الله الله... لحظة مفاجأة وترحاب. انطلقت الابتسامة والضحكة وعلت قهقهة مرحاً. ياالله. أية لحظة؟! كيف يدفن المرء نفسه حيّا هكذا ببلاده؟؟ وفي العالم أحبة وأشياء... تذكر الكثير.. صبيانيات الطيش والتعقل كلها تبدو الآن حلوة جميلة؛ ومن يرويها أحسن من مولاي الطيب؟.. أتذكر؟ وكيف ينسى؟! المقهى والنادي وكدية الشاطئ... آه صحيح.. والمجلس السري ذاك... كانا في كل مرة يضعان له اسماً حتى لايتكرر على لسانيهما. ويعرفه من يجب آلا يعرف؟؟ أتذكر؟ وكيف ينسى...؟! لم لايعاودان الكرة، كرة اللقاء على الأقل... المقصود لم لايستأنفان؟!

ضروري. ضروري. ولم لا؟ أكيد يجب تحديد اللقاء أين؟ في أحسن مكان... المقصود في مكان من تلك الأمكنة الأثيرة التليدة... العبقة بالذكرى.. صحيح. إذن نلتقي تماماً بعد العصر، كالمعهود في أيام العطل.... الله... الله..

وضع السماعة، وظل ضاغطاً عليها ساهماً في عالم بلاحدود ولامعالم، إلا عبق التحفز والذكرى... واقتلع نفسه أكثر نشاطاً مما كان في السابق، يحدوه شعور مريح بالإنجاز، واستئناف دورة الحياة. هاجت من خاطره صور

النساء خلف الأبواب، والأبناء المتسارعين إلى الغرف يرمون مجلسه بتحية الواجب المؤكد .. وشغب الأطفال..قديمة..قديمة...

ارتاح على مقعده من جديد ... ارتاح خاطره، حاضره ومستقبله. اللقاء الجديد المجدد، آه من لقاءاتك يامولاي الطيب، ما أحلاها... ما أغلاها...ما أبهاها...!

وتوقف. أحس بخواطره تتوقف عن متابعة الحيوية الدافقة... اللقاء: متى؟ أين؟

القطة

كل يوم تواجهه، ككل لحظة في يقظته ومنامه عندما يضعف حارس اليقظة والمنام أو.. عندما يقوى! لافرق. تمثل أمامه، كما هي الآن ماثلة، لاتتغير منها إلا الحركات.. بعض حركات.. بل لا يتغير منها شيء مادامت كل حركة جديدة أو تبدو كذلك، إنما تصب في الاتجاه نفسه: إشعاره بوجودها القوي، بالنظرة المتعالية عن كل شيء حولها، بنظرة الإعجاب الذاتي بما هي عليه، بما تفعله وماتريده..

انتفض في مقعده يثير انتباهها، بحركة ارتفعت لها يداه في الفضاء، كأنه يهش شيئاً حوله، لم تعره اهتمامها. ظلت ماثلة في الشرفة المقابلة أمامه يرمقها بدون أن تنتبه أو تلتفت إليه..بل هي تحس به وتفتعل التجاهل، لعلها بلا شك على شيء هام من علم الطبيعة والمجتمع لتدرك أن المسافة بينهما والحواجز، حتى الشفافة منها، تمنع وصول حركته أو رميته إليها.

ترمقه متجاهلة كما ترمق كل شيء حولها وحوله.. تمر يعنيها الحاذقتين الحادتين على كل شيء بنفس الحياد..وهو يدرك أنها أبعد ما في الكون عن مدرك محايد!

تأملها فترة، وكانت تتأمله بدورها فيما يبدو. الفرق الواضح بينهما أنه كان يتحرك مرة بعد أخرى ليثيرها، وأنها هي في موقعها كانت صامدة لمناوراته، صامتة هادئة..أخيراً. عندما أرادت، عندما تعب من مناوشاته؛ تحركت، وقفت تتمطى وظهرها يتقوس ويستطيل، تتفقد وجهها ورأسها تمسح بيمينها أولاً وبيسرارها ثانياً، على كل ما علا الصدر، ثم تخطو بكامل التؤدة والهدوء، تنظر إلى الكون حوله، وربما إليه شخصياً. فأغلب ماكان يغيظه إدراكه أنها تعرف متابعته لحركاتها وتتجاهله، أو تنظر إليه من حيث تريد أنه لايعرف أنها تنظر..ثم أتت حركتها المعلومة المفاجئة لخطوها المتئد على طول الشرفة.. على حافة الشرفة..لتقفز بخفة لاتنسب لغير الطبيعة، وإذا هي على حافته، شرفته هو..هو لايراها الآن، ولكنه يقدر أنها بعد خفة القفزة ووقوعها المضبوط حيث أرادت وكما أرادت، تعود إلى خطوها العبقري الوئيد..لا يراها الآن، ولكنها على الحافة اليسرى لشرفته، على الإفريز المؤدي مباشرة وبعد لحظات إلى إفريز شرفة مكتبه يمكنه أن يعد خطواتها في طريقها إلى..لتمر أمامه ..ها...هاهي ذي توشك..على بعد نصف لحظة.. يدق قلبه عندما تظهر..غريب..يدق قلبه لمجرد أنها لحظة ينتظرها بغض النظر عن موقفه منها..مجرد أن تنتظر لحظة متوقعة أو مؤكدة، فإنها كفيلة بأن تحرك أعماقك بعنف وفجائية..أخيراً تملأ عليه الصورة، تمر بطولها الجانبي متئدة مبالغة في تؤدتها وهدوئها، كأنها تتعمد مزيداً من اغتياله أو إغرائه..أي صغار لهذا العالم أمام نظرتها النصف المتعالية.. تكاد تخطو، تكاد تتوقف، تكاد تنظر..تكاد..وجسمها اللدن المستقيم الممدود يتلون ويتلوى بفعل الخطوات الوئيدة وإحساس العظمة البالغ..أية آلهة غجرية!؟ وقبل أن تغيب في نهاية الشرفة على الإفريز الميامن لمكتبه، توشك أن تتوقف، وتكاد تلتفت إليه.. التفاته إشفاق أم تحد أم إغراء..؟ أية آلهة غجرية؟!

ما الذي أتى بها إليه، أمامه، تملأ أفق نظرته إلى البحر الممتد الهادر الكتوم..تغذي ظمأه البالغ في وهج الشمس.. وثقل الصهد..يمتد جسدها الإلهي السامق يرسم على جلسته غمامة ظل مشرعة؟

بدت وراء الظل المشرع في وقفة جبروتية تحول بين نظرته والبحر..كأنها تسقي الكون من كل شيء فيها.. توزع عليه من نظراتها، وخطوها، وانتصابها، وتأودها..وتكاد..تكاد تنظر إليه خلفها، جنبها، كما تكاد تنظر إلى الكون.. ثم لا تراه..أو..بحيث تريد أن لايعرف أنها تراه.

وتطيل الغيمة ظلها برداً وسلاماً على نار الظمإ فيه..ويطيل التأمل في البشرة النحاسية المكتسبة، تمتص رحيق الشمس ، وتغري بما يثوي تحتها من كثيب الثلج... كيان تشهق تموجاته بالحركة، ويفتر من ثناياه الكون.. نصف نظرة جانبية... نصف شهقة من بض ذراع مرتم على خصلة شعر نافرة تنشد الخلاص..نصف خطوة..نصف موجة من نصف قدم تنثني على تبر متلألئ..نصف عبير..نصف حياة، نصف موت! ما الذي أتى بها إليه تقتحم خلوته، تنتهك حرمة الوحدة في أعماقه لترميه في جحيم الخلوة والوحدة..ثم لتعمر بوحدتها الكون حوله، كل الكون، وتقطن بجواره!؟ لم يصدق عينيه عندما رآها في الشرفة المقابلة للمرة الأولى بعد لقاء..رؤية الشاطئ، وقال انه واهم، ثم لم يستطع أن يثبت على وهم، فبلع حقيقته وصمت يرقبها ويرقب حظه معها..كمن ينتظر آخرة محققة.

معجبة بنفسها ما في ذلك شك..ولمثلها أن يكون كذلك، فهذه لاشك ذات طبيعة خاصة.. أقنع نفسه بأنها تتآمر عليه. لماذا؟ ومع من؟ هذا ما لايستطيع أن يجيب عنه، ولكنه اقتنع، ومن هنا برر لنفسه أن يراقب إعجابها بنفسها في زينتها أمام المرآة، في تعرضها لشمس الشرفة، في جولة نظرتها عليه وعلى الكون المقابل والمحيط بها..لكنها غير عابئة إلا بنفسها وبما تريد..أخيراً قال في نفسه كفى حماقة... وعزم على حسم الموضوع بما يتطلبه من جرأة..فترصد لخروجها من جواره، وافتعل صدفة التحية. نظرت إليه شبه نظرة، والتفتت حولها كأنما المخاطب غيرها أو غيره..ثم تلوت في خطواتها عابرة قبل أن تغيب في جوف تاكسي!

الآن، دور الإفريز الأيمن إلى شرفة مكتبه..لا يرى شيئاً، ولكنه يحس بخطوها الذي لايحس قبل أن تملأ فضاء رؤيته، تختال كالمعتاد، تخطو

بكامل التؤدة كالمعتاد.. تكاد تنظر إليه كالمعتاد..تكاد تتوقف في منتصف إفريز العبور..لكنها تمضي.. تقف متحركة وتتحرك واقفة كأنما سويت من بشر ساحر! تؤوب من مغامرة..يشم ريحها ويلمحها في التغير البسيط لحركة سيرها المختال، إنها تبدو على شيء من الترنح.. خمرة نشوة غجرية ماتزال تسري في كيانها كالثمالة..كاختيال. ومن سعيد ينشد الراحة بعد إجهاد النشوة. قدر ذلك، وقدر أنه محق ورقصات السطوح لزوار الليل، ومواؤهم الحاد يغزو أعماق كيانه..مغامرة نشوة غجرية غامرة متعبة!

انفتح باب الشرفة على مصراعيه كما تفعل به كل مساء، كأنها تختزن مزيداً من النسيم..نسيم المساء لغرفتها قبل أن تأوي، هي التي تختزن حرارة الشمس وشعاع القمر تحفل بكل شيء لذات تتقوى بكل شيء..مدت يدها تدفع في هواء الشرفة خصلات شعرها المجنون إلى كل اتجاه، تريحه من عبء النهار..هي التي لاتريح نفسها لحظة من عبء سحرها الفاتن..بدورها بدت تتشمم النسيم، متعبة مترنحة من ثمالة نشوة متعبة غامرة!قدر ذلك، وقدر أنه محق لأنه رآها ترافق أحد النسور، ورآها بذلك جذلى تكاد تطير، تكاد تفقد كبرياءها وتجاهلها الكون..وقدر أنها في الشرفة لاتراه، لا لأنها لاتريد، بل لأنها لاتقدر -ولأول مرة- فهو يراها غائبة ماتزال، في خدر النشوة وذكرى شقائها السعيد.

لن يسمح لها أبداً بكل هذا الاستهتار. لن يحتمل منها نصف النظرة، شبه الالتفاتة..شبه التجاهل..نصف الحياة، نصف الموت.. ستخطو..تختال..فليطمئن. وهاهي ذي تقفز قفزتها المعهودة في خفة من سعيها للاحتراق بلحظة الشوق..هاهي ذي فوق الإفريز الأيسر لواجهة مكتبه، لايراها الآن، ولكنه يحصي خطواتها قبل أن تظهر لتملأ عليه الرؤية..لكنها لن تجد الفرصة لتمنحه تلك النصف..والشبه.. ونصف الشبه..وشبه النصف.. تجد شرفة المكتب مشرعة.. لامن يهش حركتها خلف الزجاج الشفاف ولامن يتهجى حركاتها بقاموس الظمإ والاشتهاء..ستجد ريح الإغراء بما يزيد عن جاذبية نشوة غجرية أو يبشر بأقوى منها..غرفة المكتب

ذاتهامشرعة..مفتحة في شوق..ونظرة الاستعلاء الجانبية، تلك النصف الشبه توشك أن تتجاوز كل شيء في خطوها الوئيد على الإفريز، صوب المغامرة..لا. نسيم الشرفة شهي يغري بأكثر.. تشممت ماحولها. توقفت متحركة وتحركت واقفة.. ترددت وأوشكت أن تستمر في اتجاهها..النسيم شهي..ثم حركت أذنيها القصيرتين. نظرت لأول مرة حواليها نظرة تبدو عادية متواضعة، موضوعية، ثم قفزت تتشمم وتتابع.. اخترقت مساحة المكتب تتشمم وتتابع... توقفت قليلا كالحذرة عند باب المكتب ..الإغراء أقوى. الطعم أشهى..تابعت تتشمم. إلى يسار المكتب باب نصف مفتوح يتسرب منه كل نسيم الإغراء، كل عبير الطعم الساحر الذي لايقاوم.. نظرة أخيرة وبتواضع كبير إلى كل جهة. انتابه الخوف من أن تطغى قوة الحذر على إغراء الطعم..الطعم الذي أحكمه وعطره وزهاه..أتفلت مخلوقة من طعم كهذا؟.. مازالت تقارن بين نشوة وأخرى..خفضت رأسها، ودلفت تدفع نصف المفتوح الموارب، وانبرى يغلقه ويدير في ثقبة المفتاح.

على قرن ثور

نداء الجسد، نداء التعب، نداء النوم.. أن تتلخص الأماني كلها ومتاع العالم، ما قبله وما بعده، والجنة نفسها في أن يستلمك الفراش.. تستقبلك الوسادة، فتلك ملهاة... مأساة..

كثير؟ كثير على يوم بطول يوم الحشر، ورهبة القبر؟! كثير على التورم والتبرم وانفلات السمع، وانغلاق الفهم، وانسحاب الصوت؟!.. من أسماه يوماً لادهراً، قهراً؟ مَن أسماه شغلا شاغلا لا آكلا غائلا قاتلا؟ مَن مَن؟!

ترتخي عضلات الصدغين، يتدلى الذراعان بثقل الرصاص ويَنْهَدُّ الكتفان.. ويتيه اللسان في لجة الحلق. لكن الدقة يجب أن تظل، والبسمة تستمر.. وحسن الوداع كحسن الاستقبال يترك آخر انطباع جيد لدى الزائرين والمؤتمرين والمجتمعين ومضيعي زمانهم وزمان غيرهم؛ وبعد ساعات فحسب، ينتظر يوم حشر جديد.. أي حشر.. بزائرين جدد ومجتمعين ومؤتمرين ومضيعين وضائعين.

أمل في ارتخاء.. رجاء في تمديدة كيفما اتفق، وبما اتفق وعلام

اتفق.. شريطة أن تنتهي مراسيم نهاية يوم الحشر على مقربة من بداية اليوم الآخر، شريطة أن ينقطع جمال الكلام والموضوعات التي يجر بعضها بعضاً بمنتهى التفاهة والسخف وتتسلسل أثناء المصافحات متسائلة ملتصقة بسخافة لاتعادلها إلا سخافة المصافحة والتسليم المتكرر على الخدين!.

نداء الجسد.. نداء الطبيعة.. أن يستلمك الفراش فلا يسلمك... وتستقبله رائحة كان يجدها شهية.. ماتزال جد شهية ويريد لها ألا تكون كذلك في خياشيمه.. رياضته المحببة في أن يفك روائح الطبيخ المتناهية إليه وهو على عتبة الباب.. وفي أن يمر بيد رقيقة، على كتف رفيقته شريكة حياته؛ إن لم يمسك ذقنها الدقيق بين أصابعه برقة محدقاً في زينة الوجه المزوق الجميل لاستقباله، في هيئة موهمة بقبلة؛ إن لم يقبلها فعلا وبخفة... إن لم يضرب على كتفها أو على أي مكان محبب منها في حركة محببة منه، ليفك لغز عبير الطبيخ المتناهي اليه.. ملعون من قال إن الطريق إلى قلب الرجل (الزوج) تمر عبر بطنه (وأنفه)... وملعون من يردد هذه الحكمة على سمع رفيقته.. وملعون أكثر من يتعود على امتداح طبيخها واجتهاداتها لارضائه، واجتهاداته لإرضائها.. هكذا يترك محفظته تطرح نفسها حيث تريد، منذ أن يصل عتبة الدار.. ويتعمد أن يسلم بإغماضة العينين. من يستطيع أن يفتح عينه بعد يوم كاليوم وأمس كالأمس وغد كالغد المنتظر..؟ أية حياة؟ ومن يفهم أو يتفاهم.؟

يمر بعين رضى لامبالية على حركة الأولاد المتنافسين في إظهار جديتهم وغاية انضباطهم وتمسكهم بتعاليمه.. يمر بوعي متساهل على مظاهر إهمال بسيط لبعض عاداته الصغيرة... فردة الخف الليفي الغائبة لا تستجيب لحاجة أو نداء! المشجب المقوس الذي طالما اقترح تغييبه عن ناظريه وما يفتأ يلقاه طوع يده حيثما خلع معطفاً.. أو همَّ به..

لابأس.. لابأس..لابد من طرح كل إلزام والتزام.. لاحق ولا واجب... ألا يصلح هذا المبدأ لإقامة «مدينة فاضلة» أو عشرة مؤقتة على الأقل.. أو أي شيء شبيه بهدنة مؤقتة؟!

آه.. تأبى الفردة اللعينة إلا أن تظهر، تأتي بها همة المعاكسة والإسعاد مبتسمة ناطقة ببهجة الاكتشاف والنجاح.. التزام الهدنة يفرض التزام الشكر: البسمة بمثلها، والقول الجميل بمعادله، والحركة المتقربة المحببة الموحية، بعشرة أمثالها.. بعد يوم كاليوم وأمس كالأمس وغد ينتظر؛ أي غد؟!.

كيف يجزي وعي متسامح مريح أمام وعي حاذق بالواجبات، ويوم وأيام متوالية من الشقاء المستمر..؟!

نعم..نعم. آية الوفاء ألا يتخلى عنك أقرب الناس اليك في وقت الشدة! وأنت في وقت شدة شديدة؛ إذن لايمكن أن تبقى وحيداً أو تغمض عينيك أو تصم أذنيك أو يستلمك الفراش حالاً حالاً! لايليق.. لايليق.. أصول السعادة والوفاء لاتسمح.. بعيداً عن الإلزام والالتزام.. لا لن تزعجك الذرية الصالحة بضجيجها وعجيجها، فأنت أنت في حاجة إلى الارتياح إلا أن مراداً أصلحه الله، حقق فوزا على كل أقرانه، واستحق التهنئة من مدرسته.. ومن الجيران الأعزاء القادمين للقيام بواجب التهنئة.. لاداعي لاستقبالهم.. أقرب الناس إليك يعفيك، إنما المهم.. المهم.. المهم مكافأة مراد أصلحه الله.. المكافأة.. جائزة تكون مناسبة.. مثلا.. مثلا.. على كل، يمكن تأجيل هذا.. والمهم أن ترتاح..

آخر يوم كيوم الحشر لابد أن يكون متعة وأنت تستحق.. ألا تستحق؟ وأيضاً.. أيضاً يجب أن تنتبه إلى من يحتفي بك ويهيء نفسه لاستقبالك؟ واحة راحتك بعد كل يوم حشر.. ألا تستحق؟ ألا تستحقان؟

آخ.. صوت الواجبات والالتزامات وطنين الرأس.. أي طنين؟ ألا تبصر.. ملامح الحنان ترفق بك.. ترحب؟ واجبها؟ صحيح.. وواجبك؟ أتتغابى عن واجبك؟ وأي واجب؟ واجب الراحة والمتعة واستجابة الشكر للشكر، والمودة لأختها؛ والإنسانية لمثيلتها؛ أم ضاع منك وعنك كل معني وكل فهم؟ وهل ترضى بذلك؟ وإن رضيت فمن يرضاه لك؟ وإن رضيَه لك ورضيتَه لنفسك، ماذا تكون النتيجة؟ نتيجة ماذا؟ نتيجة الحارس النائم تؤكل الفاكهة على شخيره، أترضى؟! أترضى؟ أترضى؟

أتصرّ على أن المهم أن ترتاح؟ إذن المهم أن ترتاح..

تطن الكلمة الأخيرة وحدها في سمعه، بل يرن مقطعها الأخير. ويكرر في عمق حلقة آح.. آح.. ويسلم جنبيه وظهره ومعهما كل الكيان، ليتساقط مغمض العينين على عرض السرير يعلن انتصار وعي غائب..

يتسلل اليوم، يتسلل الأمس والغد.. ضجة في السمع.. من أربعة خطوط.. ستة اكثر.. أكثر.. حيرة النظرة أمام وجود بلا أبعاد.. الأشياء تظهر بأضدادها من يصدق أننا نتحدث من بؤرة العين في بؤرة العين. ما العمل أمام وجود عيون.. أشخاص بلا وجوه أو مخلوقات بدون كيان..؟ حيْرَةٌ في النظرة والبسمة لمن توجه.. حيث لايجوز أن تكبت أو تخفي.. عكسها هو الذي يكبت مهما كانت الظروف.. حيرة في الحركة بمن تتمسك أو تمسك أمام أجسام لزقة، تذكر بما قاله بعضهم في بعضهم... سمكة مطلية بالصابون...! تأتي كاتمة السر تدق الأرض بمضخم لرفيع الخطوات، يضرب حدة في عمق الغفلة والاستغراق؛ تأتي محتفية بنفسها، تمسك دفتر الالتزامات اليومية الدائمة بيمناها؛ بينما تنفخ شفتاها الجريحتان المضرجتان المزمومتان على أنامل يسراها التي تخرج لتوها من معركة اللون الجارح، في همة لإطفاء الحريق اللاهب في استطالة الأظافر.. تضع الملف، وتأخذ اليمنى دورها في موقع اللهيب المنطفئ.. بين الحين والآخر، تعطي إيضاحاً حول قضية وتضيف التباساً لأخرى.. الأرقام أكثر مما هو مقدر.. تراكم بعضها فوق بعض.. والواجبات المتأخرة عن وقتها أكثر من دقائق اليوم والغد.. وبين الحين والحين تتفقد خصلة متمردة في التواءة مصطنعة، وتؤكد وجود حزام يعض بنهم على خصر يوشك أن ينفصم عما فوقه وما تحته..

آه.. يا للإنسان العظيم.. يا للإله الرحيم.. ما أحلى الكون فضاء وجوفاً طولا وعرضاً.. إذن تلتقط كل الأصوات، لانهائية المدى ولسان يرد عليها جميعاً في وقت واحد بكل اللغات، ووعي شامل في السمع والبصر والحركة يحضُر ويسري في الجميع، في كل شيء في كل اتجاه بكل بُعد

وبكل حدث في وقت واحد، ويتسع الوقت، يتسع يتسع بقدر رحابة صدر طفل بريء، أو ملاك لم يلمسه بؤس إنس أو جان..

هات ياعبير الطبيخ ويا ألوان الإلزامات والالتزامات وهمة الذرية الصالحة؛ إرادة منفذة لكل طلب، وطاقة لاتسعها طاقة.. الفهم يتضح، والرؤية، وزينة الرفيقة في أبهى صورها، والواجب الواجب في الليل. والنهار، والحضور في الصغيرة والكبيرة، والمشاركة... أهلا بالحبيبة، وأهلِ الحبيبة، والجار البعيد والقريب، وأعراس الأصدقاء والصديقات.

كاتمة السر... لم تعد في حاجة إلى إزعاج شفتيها بواجب النفخ، ولا أناملها بالاحتراق، ولا رأسها في تركيب المواعيد بعضها فوق بعض، وخلق التباسات الخطاب... جالسة منصرفة إلى ما تريد أن تنصرف اليه، والأمور تسير بموجة قصيرة من إرادتها، من مزاجها... بل بلا موجة قصيرة ولا طويلة، ولا ملف أو يومية...

الأهم... الأهم.. أن يحصل في أقصر فترة ما لم يحصل من دهور مكافأة، مكافأة كبيرة... ليست مكافأة مراد أصلحه الله، أو أية مرادة... مكافأة الرأس القادر على إنجاز هذه المهمات، والوعي الحاضر المخطط المنجز... مدير عام، ويقال في حفل التنصيب إن هذا أقل ما يجوز في شأنه، هذا الرأس المدبر والعظيم... وستتلو هذا مكافآت أعلى وأرقى... بل حصلت بالفعل وقبل أن يجف مداد الأولى، أكثر من مدير، اكثر من عام مدير... أكبر إدارة إدارات... هذا اعتراف كوني بالنبوغ والوعي المتميز الفريد... وفوق كل عظيم امرأة... وأولاد... وكاتمة سر... وكون ومحيط...كلهم يعود إليهم الفضل، هذا ما يُقِرٌ به الوعي المتميز الوحيد، لذلك فالمكافأة لهم كلهم. وعي كبير وقلب كبير... يهنئ الكل، يخدم الكل... يعانق الكل... يحب الكل ويغيب... يغيب في حب الكل إلى حد الفناء في نداء الطبيعة، نداء الجسد...

الرجل السمفوني

الغرفة ضيقة أو تضيق. الباب نصف مفتوح تقابله نافذة مغلقة الزجاج، كفيلة فيما لو فتحت بأن تكون تيار هواء قوي، وعلى ملتقيات مصاريع النافذة وحافاتها بالإطار، تبدو تلاقيات من شأنها ألا تترك نسمة تتسرب إلى الداخل، أو نأمة تفلت إلى الخارج في حالة الإغلاق.

تنسدل على الزجاج ستارة بيضاء مخرمة، تنحسر فوقها إلى جانبين ستارة ثخينة داكنة، يمكن لو أسدلت أن تولج الليل في النهار، فلا تترك أدنى بصيص يتسرب إلى عالم الغرفة.

النافذة في موقع الوسط تماما. ركن اليمين إليها تحتله سخانة كهربائية منطفئة. وركن اليسار تحتله مروحة مرتفعة الساق من شأنها، إذا اشتغلت، أن تتحرك بمرونة في كل الاتجاهات، لكنها موقفة، فالطقس اعتدل بحياد غريب لاينسب لأي فصل حتى ليمكن القول إنه الديباجة الضرورية لأي فصل مهما كان متطرفا فوق أو تحت الصفر.

الباب في الوسط يقع في النصف تمامًا من حائطه. ركن اليمين إليه يحتله مقعد يمكن أن يكون مريحًا، ارتفعت حشيات ظهره باستقامة تامة،

وغلفت قاعدته بقطيفة، تحتها بعض طراوة تجعل القماش منتفخًا بعض الشيء.

خشب المقعد خفيف الطلاء، لماع نسبيًا، وفي دكنة قريبة من دكنة القطيفة. ركن اليسار إلى الباب تحتله ثلاجة صغيرة قصيرة موصلة بالتيار، لايمكن أن يصدر عنها حس رغم اشتغالها وتوقفها المستمر. بالقرب من الثلاجة على جنب الحائط الموالي لحائط الباب يساراً، ينتصب مشجب خشبي متعدد الرؤوس يبدو في متانة عوده، وجودة وإتقان صناعته فيما يخالطها من رسوم ونقوش بارزة ومحفورة، آية فنية لتحفة أثرية من عهد مجيد.

وبموازاة الحائط المقابل لحائط الباب، تلتصق بالجدار خزانة خشبية ذات واجهة مقسمة، ورفوف يبدو عليها بلى وعتاقة، وليس فيها شيء من وجاهة المشجب.

أمام النافذة مقعد وثير متحرك، ومكتب تغطيه قطعة زجاجية بحجمه، تلتصق به، وعلى امتداد المكتب من الجانبين طاولتان، تقاطع كل منهما طاولة أو عدة طاولات، ملتصق بعضها ببعض، تبدو كوحدة متكاملة، وتبدو الغرفة بالتالي من المكتب وجملة الطاولات على امتداده، والمتقاطعة معه، مكونة لتشكيلة مستطيلة متصلة، لايخرج منها إلا حائط الباب.

لايمكن الجزم بحالة الطاولات المتلاصقة من حيث نوعية التكوين وطبيعة المادة، فالعين لاترى منها شيئًا بسبب ما تلاصق على صفحاتها من أجهزة تسجيل، تتحرك أقراصها وتتوقف، بطريقة آلية وتلتمع وتنطفئ على واجهة أزرارها نقط مضيئة حمراء خضراء. بجانب الأجهزة سماعات خفيفة متصلة ومستقلة عن أجهزتها. يمكن المرور إلى مقعد المكتب من المسافة الفاصلة بين كل جدار خلف صف المقاعد، مع ضرورة الاحتياط من عدم التعثر ببعض الخيوط المرتبطة بموصلها في الجدار، مع العلم بأن معظمها موصول التيار بطريقة خفية.

على طاولة المكتب نفسه أجهزة متصلة فيما بينها، من جنس مايتصل

على سائر الطاولات، يبدو أن الأجهزة فوق المكتب من حجمها، واختلاف شكلها عن الباقي، يمكن أن تتحكم في مجموع الأجهزة بالنسبة لمن يقعد إلى المكتب، إذا فضل ألا يتحرك. السماعة نفسها والمعدَّة لتركب في عدة ثقوب في الجهاز، يبدو أنها بمساعدة الأزرار كفيلة بأن تنقل للأذن وتستقبل أو تبث من كل الأجهزة الأخرى. ويبدو أن من الممكن بوضع السماعة على الأذنين، وتقليب أزرار الجهاز المكتبي، الاستماع إلى مقاطع متتابعة من أى جهاز في الغرفة، بحيث تبدو لعبة وفرجة وتأليفا منسجماً بين المتنافرات، ويبدو من تقليب الأزرار، حسب المهارة، قدرة الجهاز على خلق مايريد الماهر من مسموعات، وبسرعة استخدام الأزرار والمهارة التي لاحد لإبداعها، يمكن أن تتشكل في السمع معزوفات غريبة طريفة غير مسبوقة إطلاقاً، وأكثر من ممتعة لطرافة تأليفها. ويمكن تسجيل هذا المتنافر المنسجم لينقل للسمع بدوره ووحده، فيبعث في النفس مشاعر أشد تعقيداً وأعمق فعلا من أن توصف بالكلمات، أو تقف عند حدود المتعة والفرجة.

على جدار الخزانة تلتصق صورة مركبة تبدو فيها صفحة وجه رجل، تكون أرنبة أنفه وعينه إلى الحاجب رقم 6. على الجدار المقابل صورة كبيرة مركبة من أجزاء مقصوصة ملصوقة، تمثل نصف وجه فتاة، ونصف وجه شبح عجوز بلحية، يمثل جذعه جهاز مذياع أو تلفاز .... تنبعث من أحد جانبيه ذراع عظمية، ومن الجانب الآخر عضد رياضية عضلية، يكملها ساعد منسق محلّى المعصم بجواهر نفيسة دقيقة، تنتهي أنامله بأظافر أنيقة تكمل حركة اليد الناعمة.

على طاولة المكتب علبة أنيقة مفتوحة بشكل منسق على مقصات لامعة، بأشكال وأحجام متنوعة، وبقربها عدة قطع مختلفة، مختلطة من صور عديدة، كانت تمثل أشخاصاً قطعت إلى أطراف، يمكن تركيبهاوإلصاق بعضها إلى بعض بناء على تصور أو بدونه، لخلق المتنافرالمنسجم. صورة لم يتم تركيبها بعد، ولا إلصاقها، يبدو أنها ماتزال مشروعاً أولياً، رصف فيه ربع الوجه إلى جنب مقطع عين وحاجب لشخص أسود، تحته نصف المساحة

من الخدين والأنف والذقن لطفل، وظّل مايقارب ربع الوجه خاليًا، وبالقرب من ذلك على مسافة العنق الفارغة وُضع مقطع بطن منتفخ لامرأة حامل...

مساحة الغرفة المكونة من فراغ مابين الطاولات، والتي تمثل شبه مستطيل فتحته الوحيدة موالية لباب الغرفة ونهاية حافة المكتب، تظل ميدانًا فسيحًا للحركة بواسطة مقعد صغير متحرك على عجلات، وذلك إذا لم يكن من المفضل استخدام جهاز المكتب المتحكم في عالم الأجهزة التي لاتتوقف عن العمل. يمكن، من موقع الكرسي الوحيد المتحرك في هذه الساحة، اللعب على عشرات الأزرار طولا وعرضاً، أمامًا وخلفًا، باليمين وبالشمال، بحركة سريعة قوية، وخفيفة صاعدة ونازلة، فيما يمكن أن يكون أمهر عزف سمفوني تضيف سحراً إلى سحره حركة العلامات المضيئة في تناسقها وتداخل ألوانها، وتعاقب اشتعالها وانطفائها.

تحية..إلى أدب يوسف إدريس

موت الأصدقاء هو موتنا التدريجي...هذه إحدى درر تبقت في خاطري من ذكرى أحد أساتذتي الأجلاء، خاطرة تسعفني بها الذاكرة، حيث لاتسعف العبارة...لا، ولا الكأس التي أسعفت صديقي الشاعر[1]...

هذه الجملة ليست حكمة فحسب، إنها خلاصة معاناة...الموت التدريجي أقسى موت وأطوله، إنه حياة في حيز يتناقص باستمرار..وباختفاء يوسف إدريس يمتد الظل ليشمل حيزاً من الحياة السردية العربية فيحيا أمثالي من هواة هذا الفن بهوس التوجس والانتظار.

والموت..الموت...الموت هول رهيب، تنتصب هذه العبارة نابضة تعبر عن عنف مايصدم به الحدث عمق شخصية من شخصيات "الريح الشتوية[2]".

الموت...الموت..لايوجد موت حيث لايوجد شعور بالموت. عندما يوجد الموت لانكون..وعندما نوجد لايكون الموت..تحضرني هذه الفكرة الخاطرة، من تراث بعيد، وعلى الأقل من أوراق ابن مسكويه أستاذ تهذيب الأخلاق.

هناك أجدني رغم الغياب، والموت التدريجي..والهول الرهيب..أجدني

مع ملامح يوسف إدريس، بلينها وعمق تعبيرها، بالنظرة السابرة المشفة، وبالأنامل المبدعة تحرقها رعشة الحياة. الملامح...أعرفها في صوت عميق أجش، يصدر عن غور محيط مترامي الأطراف، يتناهى عبر خط رفيع، يتمايل مع هبات الريح في كل اتجاه!

كيف يحتمل الخيط الرفيع ثقل الروح، فلا ينفرط ذرات؟ كيف لايحترق الخيط الرفيع من لهيب مايسري به؟ وكيف لايذوب الخيط الرفيع أويتسامى أويذهب هباء...عناء...جفاء...من جهله بما يسري فيه...؟!

يعجز الخيط فعلاً، يكاد ينفرط فعلاً ويحترق أو يذوب؛ لولا عصفور دقيق الصنع، نارى الحوافي، يحط بطيفه على الخيط المتواهي، يصل بين نقطتين، بين حرفين،بين كلمتين[3]...

تسري الحياة في الخيط الرفيع وفي المجال..يتوتر الكون كله منصتاً للصوت الأجش العميق، يصنع خط حياة متوتراً بعمق مابين القاهرة والرباط، يحيي، يسلم، يعانق الأحبة، يسأل عن الكأس والمقهى والزاوية؛ ورأس الإبرة المدفون في ملتقى البحرين...! يرحب بالزيارة، يفرح بالدعوة، بالخبر، بالرسالة، يطير بأجنحة الحب، بألف جناح وألف قبلة إلى الأطلس، إلى ملتقى البحرين، إلى الرباط وأكادير، يغمس سن القلم حذو حوافر الخيل ياعقبة! ومثلك يقسم قسم الحب العظيم، عظمة الأقيانوس، أن لن يعرف أرض حب بعده.. وليظلّن محباً،وفيّ الحب عميقه،للبلد الأطلسي..ياعقبة!

يرفع العصفور الناري طيفه عن الخط..فتثاقل الذرات..تنفرط والحروف، ويهمد الكون ثقيلا بلا استجابات، بلا معنى كما كان.

وما أكاد أضع السماعة، حتى أنظر إلى ساعتي محدقاً في الموعد الذي لايرحم، ولا يحتمل التأجيل، وأتساءل: ألا يترك نفسه لراحتها، وهو الذي لم يخرج بعد من وعكة؟[4].

الملامح...أعرفها في لينها وعمق تعبيرها تسبح في جلال الدخان..فولكان ينتصب وجها سمحاً على جبل فوار، يرنو بقسمات المستشف لايحجب رؤيته ظلام ولايفسحها ضوء. يرنو بقسمات المتملي إلى الخلائق المرصوصة بعضها جنب بعض..واللهاث..والزهمة الطافحة

والجموح، وفضاءات اللحم البشري الملتحم بعضها ببعض، تتبادل كتلا كتلا لحمية.. والتواطؤ.. التواطؤ الشامل الكامل؛ لامن يعرف، لامن يرى، لا من يسمع لامن يحكي أويفسر..تواطؤ تام شامل كامل...[5]...

وتلف أسورة الدخان وجه فولكان، ثم تنداح شيئاً فشيئاً؛ تنزاح، وتبدو ملامح يوسف لينة مستطلعة بمشروع ابتسامة، ورعشة من نمط عالي التوتر، ترنو إلى مايتزاحم به الفضاء، ويتداخل فيه من حلقات الدخان في غرفة ضيقة كل الضيق فسيحة مطلقة بعرض الكون...

كان ذلك في لقاء من لقاءاتنا مع يوسف إدريس في زنقة سوسة بالرباط [6].

هكذا تتداخل الصور وأنا أستحضر يوسف صديقاً وأديباً وإنساناً، فيكون المميّز الوحيد بينها، أنه يحضرني دائماً بعالمه المتوتر، وجارف حبه للحياة؟ ويتمثل القلم بين أصابعه مبضعاً في يد جراح ماهر، هو وحده المؤهل من محترفي وهواة السرد، ليجري بحد المبضع، ورأس القلم المسنون، تلك "العملية الكونية الكبرى"[7] فيشرح الكون البشري، ويتركه مفتوحاً تتجاوب فيه ذروة الموت وذروة الحياة بكل تناقض، بأقصى عنفوان. هنا الحياة. .هنا الموت؛ على طاولتين متوازيتين في جو يلفه البياض والهدوء. .حياة تنبثق وموت ينبثق...

أين الموت وأين الحياة؟

أين الغياب وأين الحضور؟

■ أصيلا في 1991/8/6.

هوامش

1 ـ الشاعر أحمد المجاطي في قوله؛ تسعفني الكأس ولاتسعفني العبارة...

2ـ رواية مبارك ربيع

3ـ قصة ليوسف بمثل هذا المعنى، طائر يحط على خط هاتفي أثناء مكالمة...

4ـ أثناء زيارتي للقاهرة في يناير 1988.

5ـ قصة بيت من لحم، ليوسف إدريس.

6ـ مركز اتحاد كتاب المغرب.

7ـ قصة؛ "العملية الكبرى" ليوسف إدريس.

كتب للمؤلف

1 ـــ روايـــات :

- الطيبون، الطبعة الرابعة، توزيع شوسبريس، الدارالبيضاء.
- الريح الشتوية، الطبعة الثالثة (1996)، مطبعة النجاح، الدارالبيضاء.
- رفقة السلاح... والقمر، الطبعة السادسة، توزيع شوسبريس، الدارالبيضاء.
- بدر زمانه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1984.
- برج السعود، توزيع شوسبريس، 1990، الدارالبيضاء.

2 ـــ مجموعات قصصية :

- سيدنا قدر، الطبعة الثانية، مكتبة المعارف، الرباط.
- دم ودخان، الطبعة الثانية، مكتبة المعارف، الرباط.
- رحلة الحُب والحصاد، دار الآداب، بيروت، 1983.

3 ـــ سرديات للأطفال والفتيان :

- طريق الحرية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المحاربين وأعضاء جيش التحرير، 1994.
- ميساء ذات الشعر الذهبي، نشر اليونيسيف ووزارة التربية الوطنية.
- أحلام الفتى السعيد، نشر اليونيسيف ووزارة التربية الوطنية.
- بطل لا كغيره، نشر اليونيسيف ووزارة التربية الوطنية.

4 ـــ دراسـات وأبحـاث :

- عواطف الطفل، الطبعة الثانية، الشركة المغربية للطباعة والنشر، الرباط.
- مخاوف الأطفال وعلاقتها بالوسط الاجتماعي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1990.

يصدر قريبا للمؤلف :

درب السلطان (رواية)

... النتيجة ؟
لعلهما أدركا أن
سعادتهما تلك التي
كانت، لم تكن في الأغلب ناشئة
اللهيب والاحتراق، عن
توترين متحدين
في نفس الاتجاه، بل عن توهج خطين
متنافرين... خصوبة التوهج
وحيويته، كانت بحيث
يمعن كل منهما في الاحتراق دون
أن يعبأ بالآخر،
لا لإهمال أو أنانية، بل لأنه
كان يدرك دون جهد أو
حتى إرادة...
أن الآخر مثله يحترق... وأن فيض
التوهج منهما، حولهما،
بحيث يحرق الكون كله ولا ينطفىء
أو يخمد... !.

... النتيجة ؟

لوحة الغلاف : فؤاد بلامين

25 د.